بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

تاريخ الادب العربي

في العصر الجاهلي

ادب اللغة وتاريخه

انه لحرى بنا قبل التعرض لدراسة أدب اللغة وتاريخه أن نعرض لكلمة الأدب نعالجها مفردة غير منسوبة الى اللغة معالجة تسايرها منذ الطفولة الى أن اكتمل معناها وصار الى الحد الذى نعرفه لها الآن والذى عنده وقعت تلك النسبة حتى اذا ما تعرضنا لمعنى الادب نكشف عنه ونبين الغرض منه كان قولنا واقعا على أساس وألفينا ذلك المعنى سهل الأخذ على آذاننا وطيد الاستقرار فى أذهاننا .

ولعل أول معنى عرف الكلمة الأدب هو وقوعها مصدرا لأدب يأدب اللازم من باب ضرب بمعنى صنع طعاما يحتفل به ويدعو اليه والاسم من ذلك المأدبة على أن هذا الفعل استخدم من الباب نفسه ويغلب أن يكون ذلك فى الوقت عينه متعديا بمعنى دعا الى مأدبته ومن ذلك قول طرفة بن العبد ويستشهد به على المعنيين

نحن فى المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدب فينا ينتقر

يقول نحن فى المشتاة أى الجدب ندعو الدعوة العامة وهى الجفلى فلا ترى الآدب فينا أى صانع المأدبة أو الداعى اليها ينتقر فى دعوته فيختص بها فريقا بحب غيره والنقرى ضد الجفلى

مكثت الكلمة على هذا المعنى بشعبتيه السابقتين العصر الجاهلى كله تقريبا حتى اذا ما كان قبيل الاسلام تخطت متعدية ومن باب ضرب أيضا الى معنى آخر هو التهذيب والرياضة فقيل أدبه يأدبه بمعنى هذبه وثقفه كما قيل أدبه بالتشديد على سبيل المبالغة والتكثير بمعنى علمه بل وبمعنى عاقبه على إساءة لان العقاب يحقق معنى الادب على هذا الوجه وهو كل رياضة محمودة يتخرج بها الانسان فى فضيلة من الفضائل . ومن ذلك قول عتبة بن ربيعة لابنته هند وهو يصف لها أبا سفيان بن حرب زوجا على غير تسمية « يؤدب أهله ولا يؤدبونه » وقولها له فى الجواب عن ذلك « انى لأخلاق هذا لوامقة واني له لموافقة واني لآخذته بأدب البعل مع لزوم قبتى وقلة تلفتى »

ولما أن جاء الاسلام بتعاليمه الداعية الى مكارم الاخلاق انتشر هذا المعنى وشاع وأكثر الناس استعماله أيما اكثار وبخاصة قول النبى صلى الله عليه وسلم « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » ثم توسعوا فى كلمة الأدب فأطلقوها على كل ما له أثر فى التهذيب وحضوا لذلك على التأدب بالمأثور ولا سيما الشعر لما فيه من الدعوة الى المكارم والتسابق الى المحامد . فمن ذلك قول عمر بن الخطاب لابنه « يابنى انسب نفسك تصل رحمك واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك » وقول معاوية « اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر آدابكم فان فيه مآثر أسلافكم ومواضع ارشادكم » وقول عبد الملك بن مروان لمعلم ولده « أدبهم برواية شعر الاعشى فانه قاتله الله ما كان أعذب بحره وأصلب صخره »

وبهذا انتقلت كلمة الأدب الى معنى الظرف فى الخلق وحسن التناول للقول وكلمة التأديب الى العمل فى سبيل ذلك وطاوعتها كلمة التأدب فقيل أدب يأدب من باب كرم فعل السجايا والطباع فهو أديب إذا حسن أدبه ومن ذلك قول سالم بن وابصة وهو إسلامى من قصيدة يحض فيها على مكارم الاخلاق والتظرف فى القول :

إذا شئت أن تدعى كريما مكرما أديبا ظريفا عاقلا ماجدا حرا

إذا ما أتت من صاحب لك زلة فكن أنت محتالا لزلته عذرا

ومن هنا بدأت كلمة الادب تنحرف عن معناها اللغوى الى هذا المعنى الاصطلاحى ولما أخذ القوم فى تدوين بعض العلوم من دينية ولسانية آخر عهد الدولة الاموية انحازت هذه الكلمة الى حذق علوم اللغة لما لها من الاثر فى تقويم اللسان واستكمال أداة البيان ثم كان تقدم العلوم وارتقاء المعارف أيام الدولة العباسية بما حدث من تقسيم وتفصيل واستجد من ترجمة ونقل فجعل التأديب مهنة تصدى لها المؤدبون وتصدرهم فيها الأئمة من الرواة والعلماء وقصر الادب على مأثور اللغة من نثر وشعر فعكف الناس على دراسته بهذا المعنى حتى وضعت له كتب خاصة عرفت بكتب الادب كما عرف غيرها بكتب الفقه أو النحو مثلا. وقد جارت كلمة الادب فى ذلك كلمة الأديب فوسم بها كل من حذق الادب على هذا الوجه وعرف من سائر العلوم ما هو للادب وسيلة أو للادب به علاقة وله منه فائدة إذ لا يجمل بالاديب أن يكون من غير الادب عاطلا فان الادب ثقافة خاصة لها حاجة وبها افتقار الى أن ترتكز على ثقافة عامة بدونها يقل بهاء الادب وتذهب حلاه

قلنا إن الادب صار على عهد الدولة العباسية مهنة تصدى لها المؤدبون وتصدرهم فى ذلك الأئمة من الرواة والعلماء ولكنهم لم يتجاوزوا كثيرا

مأثور اللغة فى روايته ونسبته على أيدى الرواة أو شرحه والافادة منه على أيدى الادباء فبقيت كتب الادب ما بين كتب رواية تخلص للمأثور مجردا وكتب دراية تبحث فى معناه إجمالا أو تفصيلا على أن الاخيرة لم تخل من من ابحاث خارجة عن معنى الادب وهى بنسبتها الى العلمية أخرى كأبحاث لغوية من فقه اللغة وأخرى نحوية أو صرفية من علمى النحو والصرف وهكذا

استمرت الابحاث جامدة عند معنى الادب دون تاريخه الذى لا يتحقق غير التحليل والاستنباط وتتبع أطوار المأثور بأنواعه ضعة وارتفاعا وتلمس العلل لذلك والاسباب والانكباب على دراسة البيئات من عامة وخاصة لمعرفة ما أنتجته فى ذلك التاريخ من آثار. فتاريخ الادب وهو حياته يعتريه ما يعترى حياة الامم فى كل مظاهر التاريخ السياسى العام. نعم ان المتقدمين فى ذلك العهد وبعده قد عالجوا أبحاثا هى من حياة الادب فى الصميم كالموازنة بين شىء فى عهدين أو بين شاعر وآخر جملة أو فى قصيدين وكالكلام فيما طرأ على اللغة بالاختلاط الا أن ذلك لم يتناول فى مجموعه كل ما لحياة الأدب من أبحاث كما لم ينسجم مرتبا فى سلك النظام الذى ينبغى أن تكون عليه تلك الابحاث. ثم لم يزل تاريخ الادب على تلك الحال من النقص فى بعض وجوهه وانتثاره كله على غير شخصية قائمة فى بطون الكتب الى أن هب المستشرقون يضعون أسسه ويرفعون قواعده وتوافروا على أبحاثه يثبتون أصولها ويفرعون الكثير من فروعها حتى أوصلوه الى صورة متميزة قائمة فاذا هو كما نراه الآن علم ذو نظام وترتيب وتقسيم وتبويب وكان لهم فى ذلك طريقان إما دراسته موضوعا موضوعا ينتقلون بكل موضوع من عصر الى عصر حتى يستتم أطواره ويستكمل ألوانه وهذا على غنائه قليل وإما دراسته عصرا عصرا يتناولون فى كل عصر موضوعات الادب واحدا واحدا كما هى الحال فى التاريخ السياسى العام وهذا هو المتبع والكثير

فعل المستشرقون ذلك وحينما أنشئت دار العلوم على نظارة على مبارك باشا للمعارف المصرية اذ ذاك كى تنهض باللغه العربية فى بلد انتهت اليه زعامة الناطقين بالضاد كان لزاما أن يكون تاريخ الادب من أول ما يعنى بدراسته فى هذا المعهد الجديد وفعلا كان وعهد بذلك أول الامر الى طائفة لعل أكثرهم غناء كما هو بلا شك أبقاهم أثرا المرحوم الشيخ حمزة فتح الله صاحب المواهب الفتحية باكورة ما ألف بالعربية فى هذا الباب لكن الشيخ طيب الله ثراه كأنه نظر فى الادب الى أنه فن لا يستند الى علم أو أن دراسته بعيدا عن تاريخه تكون الاديب فنهج فى مواهبه منهجا هو الى دراسة الادب أقرب منه الى دراسة تاريخه اذ لم يكد ينتهى على عجل منه فى تصديره ببضعة أبحاث عامة على الطراز القديم حتى انتقل مسرعا الى المأثور يؤدب به بنيه تأديبا جعل دعائمه الاربع القصائد فالمحاكمات فى الشعر ثم الرسائل فالخطب فى النثر فشرح عشر قصائد أجرى بعدها عشر محاكمات ثم ساق من بعدهما عشر رسائل أتبعها مثلها من الخطب دون أن يتقيد فى ذلك بعصر معين أو يجرى على سنن خاص اذ كان مهيعه كما سبق الالمام بطائفة من المأثور تشرح وتدرس كما يتطلب المعنى ويقتضى الاستطراد على أنه لا يبعد أن يكون رحمه الله قد سيق الى ما فعل لا مدفوعا بتلك النظرة الفنية الآنفة بل بما تملكه من حب القديم يجرى على سننه ويهتدى بهديه وبخاصة اذ وجد طريقه معبدة أمامه بينا الجديد لا يزال مغلق السبل غير واضح الاعلام. ولهذا لم تكد دراسة الادب تسند الى المرحوم حسن افندى توفيق أحد أبناء دار العلوم الذين زاولوا التدريس حقبة فى ألمانيا مهد الاستشراق عامة وفى العربية خاصة حتى أبرز لنا صورة لتاريخ الادب هى على صغرها يصح أن تكون بحق النموذج الاول فيه ويجب على كل دارس له من بعده مهما أبدع وفصل ان يكون موقفه منه موقف الحريرى فى مقاماته من البديع حيث يقول على سبيل التمثيل

فلو قبل مبكاها بكيت صبابة بسعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلى فهيج لى البكا بكاها فقلت الفضل للمتقدم

الى هنا ولنا لفتة الى ما تقدم توضيح بها أمراً جديراً بالتوضيح

ذلك أن الادب أدخل فى الفن منه الى العلم ولذا يواتى ذوى الطباع والاستعداد أكثر مما يواتى ذوى الجد والاجتهاد وان لنا على ذلك لآية بينة هى النبوغ فى باب من أبوابه أو اكثر وقلما يكون ذلك بالقليل من العمل يقوم به اناس دون اناس يصلون ليلهم بنهارهم كدحا ونصبا ثم هم لا يخرجون بصفة الاديب فتراهم لا يزالون بعيدين عن أن يجودوا نثرا أو شعرا فى أى باب يتخيرون على أن ملكة الادب مع هذا لا تتهيأ وسائلها ولا يتم نضجها بالاعتكاف على المأثور وحده يحفظ ويروى بل لا بد من درس تاريخه والاحتكام فى ذلك الى ما قعد من قواعد ووضع من نظم بحكم الظروف وتحت تأثير البيئات مع مسايرة عوامل النمو وطبائع الارتقاء. واذا تكون دراسة تاريخ الأدب وسيلة الى تكوين الأديب ويكون من وقف عند الوسيلة بعيدا عن الغاية جديرا باسم العالم دون الأديب.

هذا وإذ قلنا ان المتبع فى دراسة تاريخ الأدب لأية أمة أن يسايريه تاريخها السياسى جنبا الى جنب فقد وجب اذا أن يكون أول عصر للأمة العربية عصرها الجاهلى ومدته مائتا سنة على الأكثر قبل الاسلام غير أن كلمة عن العرب فى موطنها وأصلها وأقسامها وقبائلها وأيامها واجبة قبل ذلك أن تكون.

العرب

موطنها — أصلها — أقسامها — مشهورات قبائلها — أيامها الكبرى ذوات الاثر فى الادب .

اولا ـ موطنها

موطن العرب الاول الذى منه درجوا فانتشروا فى الارض هو تلك الجزيرة المنسوبة اليهم فى الجنوب الغربى من آسيا وهى جزيرة متسعة الارجاء مترامية الاطراف يتصل بها من الغرب بحر القلزم المعروف بالبحر الاحمر ومن الشرق بحر فارس وعمان ومن الجنوب بحر الهند وتضرب شمالا إلى الشام والعراق فيدخل فيها جزء من كلتا باديتيهما وعد بعضهم منها أرض الجزيرة بين دجلة والفرات لسكنى العرب قديما إياها

وهى تنقسم أربعة أقسام الحجاز واليمن ومع كل تهامته ثم العروض ونجد ويكاد يكون ذلك التقسيم طبيعيا فان الحجاز وهو سلسلة جبالها العظيمة يمتد فى الغرب منها على مقربة من البحر الاحمر من الجنوب إلى الشمال بين أرض منخفضة غربية هي التهائم وأخرى مرتفعة شرقية هى النجود وفى نحو الثلث من تلك السلسلة جنوبا تتفرع جبال تثليث قليلا إلى الشمال الشرقى. فما إلى الشمال منها الحجاز وتهامته. وما إلى الجنوب اليمن وتهامته غير أن اليمن تمتد على ساحل بحر الهند جنوبا إلى بحر عمان شرقا . ثم ما الى الشرق من الحجاز نجد الى بحر فارس وبادية العراق شرقا والى بادية الشام شمالا. أما الارض المعترضة بين

اليمن جنوبا ونجد غربا وشمالا وبحر فارس شرقا فهى العروض لاعتراضها بين كل هذه الاقسام ماعدا الحجاز الذى ينفصل عنها بجزء من نجد يمتد من جنوب جبال سلمى الى شرق جبال تثليث

وهذه كلمة عن كل قسم تنتظم حاله الطبيعية وما كان عليه سياسيا قبل الاسلام

١ - الحجاز

إقليم طيب الهواء ليس به كسائر بلاد العرب نهر يجرى ولكن فيه العيون المتفجرة من الجبال المعتضدة بالسيول والامطار الممتدة من واد الى وادو عليها قراهم ونباتهم من حبوب وخضر وفواكه ورياحين. ومن حيوانه الخيل الجيدة والابل والضأن والمعز ومن وحوشه بقر الوحش وحمره والغزلان والظباء والذئاب والضباع والثعالب والفهود والنمورة والاسود. أما طيوره فمنها الدجاج والحمام والرخم والنعام والحدأ والبوم والغربان

وللحجاز حاضرتان المدينة المنورة به ومكة المكرمة بتهامته

فمكة بالميم والباء ومن أسمائها أم القرى والبلد الامين وبها جميعا نطق القرآن الكريم وتسمى كذلك صلاح وقد ورد كثيرا فى الاشعار ولا سيما فى القديم. وهي واقعة فى بطن واد تحف به من جميع جهاته الجبال فأبو قبيس من الجنوب والشرق وحراء من الشرق والشمال وبه الغار الذى كان يتعبد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيقعان من الشمال والغرب وثور من الغرب والجنوب . وأول ما كانت سكنى مكه كانت لعاد ثم خلفهم عليها العمالقة ولما عظم أمر قحطان نزلها ابنه جرهم واليه تنسب جرهم الثانية لاجرهم عاد

فلم يزل أمر مكة بيدها حتى رفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل . وفى جرهم أصهر اسماعيل وبقى هناك فملكوه عليهم وانتقل الامر من بعده الى ابنه نابت ولكن جرهم أخذته ثانية ومنها انتقل الى خزاعة من الازد من قحطان أيضا فلم تزل فيهم مفاتيح البيت يقومون بسدانته حتى أعاده الى ذرية اسماعيل قصى ابن كلاب ثم أنشأ قصى دار الندوة بمكة فكانت محل تشاور قريش وكان اليه أمرهم حتى مات فانتقلت الرياسة الى ابنه عبد مناف ولكن بقيت سدانة البيت مع ابنه عبد الدار قيل لأنه هو الذى انطلق بمفاتيحه ففتحه لقريش حين أخذها أبوه من خزاعة . ومن عبد مناف انتقلت الرياسة الى هاشم بن عبد مناف فالى عبد المطلب بن هاشم جد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي فتح مكة بعد الاسلام فانتهت اليه رياسة القديم والحديث . ومما يذكر هنا اقراره صلى الله عليه وسلم بنى عبد الدار على سدانة البيت كما كانت لهم من قبل

هذا وقد أكسب مكة وضع البيت بها منذ عهد ابراهيم لدى العرب عامة حرمة دونها كل حرمة وتقديسا ما أوغله فى القلوب من تقديس فكان الملوك من حمير وكندة ولخم وغسان يحجون اليها ويدينون لقريش بها ويكفى من تعظيمهم إياها أن جعلوا حولها شقة حراما يحرم صيدها وقطع نباتها . ومما ضاعف فى عظمتها وفى حرمة البيت بها ما نعل الله بأصحاب الفيل وقد جاء أبرهة يقودهم يريد هدم الكعبة وصرف العرب عنها الى حج القليس باليمن وهى كنيسة ابتناها بصنعاء وبالغ فى تجميلها فارسل الله عليه طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول . ثم زادت تلك العظمة قدسا وجلالا بمجىء

الاسلام معظما أمر هذا البيت وجاعلا الحج اليه فريضة على كل مسلم ومسلمة استطاعا اليه سبيلا

والمدينة هى الحاضرة الثانية وقد غلب عليها هذا الاسم واسمها القديم يثرب وبهما نطق القرآن الكريم وقد سماها الله تعالى الدار فى قوله (والذين تبوءوا الدار والايمان) وسماها النبي صلى الله عليه وسلم طيبة وطابة من حسن الرائحة أو تمام النقاء . وهى تقع فى مستو من الارض شماله جبل أحد وجنوبه جبل عير وشرقه البقيع وغربه العقيق. وهى قديمة العمارة كمكة قيل أول من نزلها يثرب ابن عبيل من العمالقة وبه سميت ثم خلف العمالقة عليها قوم من بنى اسرائيل نزحوا اليها على عهد موسى بن عمران . ومازالوا بها حتى كان سيل العرم باليمن وتفرق من أهله كثير كان منهم الاوس والخزرج الذين امتلكوها على بنى اسرائيل فلم تزل بيدهم حتى هاجر اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكما شرف الله مكة بالحج الى البيت بعد الاسلام شرف المدينة بثواء جثمان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ومعه كثير من جلة الصحابة والانصار

هذا وبالحجاز غير حاضرتيه من المدن والقرى والاودية كثير

منها الطائف فى بطن من جبل غزوان شرق مكة وهى شديدة البرودة كثيرة الفاكهة وأهلها من ثقيف وقيل ثقيف من بقايا ثمود وبهذا كان يعير الثقفيون وكان الحجاج من الذين يدفعون ذلك وهى احدي القريتين المذكورتين فى قوله تعالى (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) فالقريتان مكة والطائف والرجلان الوليد بن المغيرة من مكة وعروة بن مسعود من الطائف . وبين مكة والطائف واد كثير النخل هو عكاظ وبه كانت تقوم سوق العرب الكلامية كما سيأتي بعد .

ومنها جدة فرضة مكة على ساحل بحر القلزم ميناء عظيمة كانت تنتهى اليها

المراكب من مصر واليمن وهى ميقات من قطع البحر من جهة عيذاب. «وهى المدينة التى خلفتها القصير»

ومنها خيبر إلى الشمال الشرقى من المدينة وهى مدينة قديمة ذات حصون كانت لبنى عنيزة من اليهود قبل الاسلام والخيبر فى لغتهم الحصن ولبنى قريظة والنضير بعده وهى معروفة برداءة الهواء وكثرة الوباء وبحماها يضرب المثل قال الشاعر

وقفت بها أبكى وأشعر سخنة كما اعتاد محموما بخيبر صالب

وكانت كثيرة النخل يحمل تمرها الى الجهات القصوى وفى ذلك يقول الشاعر :—

فانك واستبضاعك الشعر نحونا كمستبضع تمرا الى أرض خيبرا

وعلى مقربة من خيبر الى الشمال الغربي وادى القري وبه الحجر نزل ثمود فى القديم. وبين خيبر والمدينة قرية فدك

وفرضة المدينة الجار ومقامها تقوم ينبع الآن. وعلى مقربة منها إلى الجنوب الشرقى ماء بدر الذى تنسب اليه الغزوة الكبرى بعد الاسلام.

٢ — اليمن

اليمن اقليم متسع النواحى كثير الخيرات تسمى أرضه الخضراء لكثرة مزارعها ونخيلها وأشجارها يخرج من الحبوب والفاكهة ماتخرج المنطقتان المعتدلة والحارة وحيوانه حيوان الحجاز يزيد فى أهليه البقر والبغال والحمر وفى بريه الزراف والقردة فضلا على ما بأرضه من المعادن الكثيرة المتنوعة.

وهو ينقسم بضعة أقسام. فاليمن الاصلية على امتداد الحجاز جنوبا جبالا وتهائم وإلى شمالها الشرقى نجران كما إلى جنوبها الغربى حضرموت الممتدة

طويلا على ساحل بحر الهند وعلى هذا الساحل يمتد الشحر فمهرة فظفار ثم عمان المتصلة بساحلى عمان وفارس . وفيما بين هذه الاقسام كلها غربا وجنوبا وشرقا والعروض شمالا توجد صحراء الاحقاف المعروفة بالربع الخالى وبها كان أصل منازل عاد ولا يعرف عنها الآن سوي القليل.

وقد شهدت اليمن حضارة قديمة تضارع فى جلالها وعظمتها أقدم الحضارات وأول ماعرف فيها الملك للعرب كان لعاد وهذه هى الطبقة العادية وخلفها القحطانيون وعظم ملكهم فى الحميريين والتبابعة من بعدهم ومنهم بلقيس ولم يزل ملكهم فى سلطان وعتاد حتى جاء السيل فتفرق كثير من شعوبهم فى سائر أنحاء الجزيرة وضعف أمر من بقى منهم باليمن ومن ثم تمكنت الحبشة من امتلاكها ثم الفرس من بعدها وبها كانوا الى الاسلام .

واليمن (شأن كل بلاد كثيرة الخيرات قديمة العمران) ملأى بالمدن التاريخية ذات الحصون المنيعة والقصور المنيفة والآثار التى تشهد على رقى عادى له فى التاريخ مقام كبير وقد بدأت المكشوفات الحديثة تخبر عما هو هنالك دفين .

فحاضرتها صنعاء فى جنوب اليمن الاصلية وهى من أحسن البلاد سكنا وأطيبها هواء تكاد تحاكى دمشق فى كثرة مياهها وأشجارها وبظاهرها قصر غمدان الكثير ذكره فى الاشعار .

ومن مدنها مأرب الى الجنوب الشرقى من صنعاء وكانت من أجمل بلاد اليمن حسن تربة ولطف هواء وهى الموصوفة فى القرآن بالبلدة الطيبة وتسمى أيضاً سبأ نسبة الى بانيها وبنو سبأ هذا هم الذين أخبر القرآن أن كان لسكنهم فيها آية جنتان عن يمين وشمال فأعرضوا فارسل الله عليهم سيل العرم وبدلهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل

ومنها عدن وهى فرضتها على ساحل البحر المحيط وكانت أعظم المراسى

ومحط التجار من عامة الاقطار « الحجاز والحبشة والسند والهند وجزائر المحيط والصين »

٣ ـ العروض

والعروض على ما تقدم من موقعها تنقسم قسمين داخلى هو اليمامة وساحلى هو البحرين. فاليمامة أكثر بلاد العرب نخيلا ومنها فى القديم زرقاء اليمامة المضروب بها المثل فى حدة البصر وفى الحديث مسيلمة الكذاب وقصبتها اليمامة. والبحرين كثيرة النخل كذلك وفيها غيره الحب والفاكهة ومن مدنها الداخلية هجر المضروب بها المثل فى تصدير التمر ومن الساحلية القطيف.

وكانت اليمامة فى القديم لجديس وطسم والبحرين لعاد وجاء من بعدهم فى الاثنتين القحطانيون ومن كان بعدهم على اليمن الى أن جاء الاسلام إلا أن اليمامة وحدها آخر عهد الفرس كانت لبنى حنيفة وآخرهم هوذة بن على الذى كتب اليه النبى صلى الله عليه وسلم كما كتب الى الملوك

٤ ـ نجد

أما نجد فكالحجاز نباتا وحيوانا إلا أنها أحسن أرض فى جزيرة العرب هواء وأطيبها شميما ولذلك انبرى الشعراء قديما وحديثا يلهجون بذكراها ويترنمون بريا عطرها وشذاها قال الشاعر

أقول لصاحبى والعيس تهوى ... بنا بين المنيفة فالضمار
تمتع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشية من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجد ... وريا روضه بعد القطار
وأهلك إذ يحل الحى نجداً ... وأنت على زمانك غير زار
شهور ينقضين وما شعرنا ... بانصاف لهن ولا سرار

وهي تنقسم قسمين نجد السافلة وهي ماوليت العراق وبها صحراء الدهناء ونجد العالية وهي ماولى الحجاز وفيها أجأ وسلمى جبلا طيء الوارد ذكرهما في كثير من الاشعار ومنها أرض العالية التي كان يحميها كليب التغلبي ومن أجلها قتل فنشبت حرب البسوس من بعده أعواما طويلة بين بكر وتغلب ابني وائل.

هذا ولا تعلم لنجد سكنى في القديم قبل ولد عدنان ومن خالطهم من القحطانيين بعد السيل

مدن البوادي

ومن المدن العربية ببادية الشام تيماء بالغرب منها وكانت حاضرة طيء وبها الابلق الفرد حصن السموءل بن عاديا ثم دومة الجندل بالوسط وكانت لبني كلب وفيها كان التحكيم بين علي ومعاوية.

ومنها ببادية العراق الحيرة مقام الملوك اللخميين وفيها الخورنق والسدير المعروفان ثم الانبار وكان الاكاسرة يدخرون بها الحبوب كيلا تسوس.

ومنها بالجزيرة ديار بكر وربيعة ومضر الثلاث نسبة الى من سكنها من أبناء هؤلاء على أنهم سكنوا معها غيرها هناك كالموصل ونصيبين كما نزح الى الجزيرة غيرهم من القبائل الاخرى كالطائيين.

هذا ومما كان يدور على ألسنة الشعراء كثيرا ذكر الدارات والبرق كدارة جلجل وبرقة ثهمد يقصدون بالاولى كل أرض مستديرة بين جبال تكون ذات سهولة وبياض وبالثانية ما كان فيها غلظ وبريق من حجارة ورمال تختلطان بالطين. وقد ذكر صاحب القاموس أن البرق تنيف على المائة وعددها منسوبة الى ما أضيفت اليه مرتبا على الحروف كما ذكر أن الدارات تنيف على المائة والعشر وذكرها كلها كذلك بعد أن قال رحمه الله انها لم تجتمع لغيره مع بحثهم وتنقيرهم فجزاه الله خيرا.

ثانيا - أصلها وأقسامها ومشهورات قبائلها

العرب ذلكم الجيل من الناس الذين كان لسانهم العربية وكانت سكناهم الاولى تلك الجزيرة المنسوبة اليهم سيان فى ذلك الحضر سكان المدن والبدو الرحل الذين اختصوا باسم الاعراب فأطلق اسم العرب لذلك على الحضر أو كاد.

والعرب أمة سامية ترجع فى أصل نسبها الى سام بن نوح عليه السلام وقد اعتاد المؤرخون تقسيمها قسمين عربا بائدة وهم الذين بادت ذراريهم وانقرضت تفاصيل أخبارهم قبل مجىء الاسلام بقرون وأخرى باقية وهم الذين جاء الاسلام والجزيرة العربية تعج بأبنائهم وتضيق عن أخبارهم

فالعرب البائدة وقد يقال لهم العاربة أو العرباء يرجعون عن قرب إلى إرم ابن سام والمشهور من قبائلهم عاد بن عوص بن إرم وثمود بن جاثر بن إرم وعبد ضخم وجديس ابنا إرم وطسم وعمليق ابنا لاوذ بن إرم.

فعاد كانت منازلهم الاولى بالاحقاف وهم الذين بعث الله اليهم نبيه هودا عليه السلام فلم يؤمنوا فأهلكهم بالريح العقيم سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما كما أخبر القرآن وكانوا قد بلغوا من القوة واتخاذ المصانع للخلود مبلغا عظيما ولذلك يقال للشيء يكون قديما وعظيما عادى نسبة اليهم

وثمود كانت منازلهم الحجر بوادى القرى وقد بعث الله اليهم نبيه صالحا عليه السلام فلم يؤمنوا فأهلكهم بالصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين كما جاء بذلك أيضا القرآن ولم يكونوا أقل من عاد قوة وعتادا فقد جابوا الصخر بالواد وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا فارهين

وعبد ضخم كانوا يسكنون الطائف فهلكوا فيمن هلك ويقال إنهم أول

من وضعوا الخط العربى كما يقال إنهم يرجعون الى ثمود ولذلك قد تنسب ثقيف بالطائف الى بقايا ثمود التى كانت بعيدة عن مهلكهم

وجديس وطسم ويقال إنهما من عاد كانت منازلهم باليمامة فأباد بعضهم بعضا بالحرب فى أخبار طويلة يذكرها القصاصون ليست محل ثقة واعتقاد

وعمليق كانت أمة عظيمة يضرب بها المثل فى الطول وتفرقت منها شعوب سكنت عمان والبحرين والحجاز والعراق والجزيرة والشام ومصر ومنهم بالاخيرة فراعنة الرعاة وقد بادوا جميعا أو اختفت شخصياتهم فى أمم غيرهم

ومن القبائل التى تنسب إلى البائدة أيضا جرهم الاولى تمييزا لها عن جرهم الثانية وقد يكون التمييز بجرهم عاد وجرهم قحطان وكذلك أميم وجاسم ووباربل ومدين أبناء مدين بن ابراهيم على بعض الاقوال وهو ضعيف

والعرب الباقية قسمان قحطانيون ويقال لهم المتعربة أو المستعربة عند من وسم الاولى بالعاربة والعرباء كما يقال لهم العاربة أو العرباء عند من قصر على الاولى لفظ البائدة وهم منسوبون إلى قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام .

وعدنانيون ويقال لهم المتعربة أو المستعربة كالقحطانيين كما يقال لهم المستعربة فقط عند من خص القحطانيين بالمتعربة وهم منسوبون إلى عدنان بن أدد بن مقوم بن ناحور بن تيرح بن يعرب بن يشجب بن نابت بن اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام وأبو ابراهيم آزر أو تارح بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ ابن أرفخشذ بن سام وليس الى النسب فيما خلف عدنان طريق صحيح انما المجمع عليه أن اسماعيل ابن ابراهيم وابراهيم يرجع الى سام فهذان الشعبان الباقيان ساميان كالشعب البائد واذا تكون الامة العربية جمعاء سامية من غير ما خلاف فيلتقى العدنانيون بالقحطانيين فى عابر والقحطانيون بالبائدة فى سام

القحطانيون

ولد قحطان يعرب وجرهم فانتقل جرهم الى الحجاز كما سبق ولما جاء اسماعيل مكة خالطه بنوه بها واستوطنوها معه وهم جرهم الثانية وبقى يعرب باليمن فولد يشجب وولد يشجب سبأ وأنجب سبأ فى اثنين حمير وكهلان واليهما ترجع جميع قبائل اليمن

فالى حمير ترجع قضاعة والمشهور من أحيائها سبعة جرم ونهد وبقيتا باليمن وعذرة بجنوب الحجاز وجهينة وبلى شماله بالترتيب وبهراء شمالهما فيه وعلى شاطئ الفرات ثم كلب بدومة الجندل وتبوك وأطراف الشام . والى عذرة ينسب العشق والتتيم ومما يحكى فى هذا أنه قيل لرجل منهم ما بال العشق يقتلكم يا بنى عذرة فقال لان فينا عفة وجمالا وقيل لآخر منهم ما بال الرجل منكم يموت فى هوى امرأة انما ذلك ضعف فيكم يا بنى عذرة فقال أما والله لو رأيتم النواظر الدعج تحتها المباسم الفلج فوقها الحواجب الشرج لاتخذتموها اللات والعزى

وذكر بعض النسابة أن قضاعة من العدنانية والصحيح ماتقدم فقضاعة واسمه عمرو هو ابن مالك بن عمرو بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير ولعل ذلك شبه عليهم من أن أم قضاعة مات عنها مالك وهى حامل فيه فتزوجها معد بن عدنان فولدت قضاعة على فراشه فتبناه فنسب اليه ثم رحل قضاعة الى اليمن فكان له ملك بالشحر ويقال ان له قبرا معروفا بجبل هنالك

والى كهلان ترجع شعوب كثيرة كانوا يتداولون الملك وبنى حمير باليمن ثم انفردت بنو حمير به وبقيت بطون كهلان على كثرتها تحت إمرتهم الى أن تقاصر ملك حمير فكانت الرياسة بالبادية لبنى كهلان. وأشهر أحياء كهلان أحد عشر «١» طيء وهم أكثر أحياء اليمن بطونا فاليهم يرجع خمسة عشر بطنا نزح

منهم كثير الى الحجاز ونجد فغلبوا بنى أسد على أجأ وسلمى فعرفا بجبلى طيء وخرج بنو أسد الى الشرق من ذلك والى بولان أحد بطون طيء ينسب الرجال الذين قيل فيهم إنهم أول من كتبوا بالخط العربى بعد العرب الاولى «٢» الازدوهم بطون كثيرة باليمن وعمان ومنهم خزاعة بمكة والاوس والخزرج بالمدينة والغسانيون آل جفنة بالشام «٣» لخم ومنهم المناذرة ملوك الحيرة بالعراق «٤» كندة وكان لهم ملك قديم بحضرموت وآخر بعده بنجد ودومة وكان آخر ملوكه حجر والد امرئ القيس «٥» عاملة بشمال الشام . ثم مذحج وهمدان ومراد وجذام وأشعر وأنمار ولم تعرف لبطونهم فى القديم خارج اليمن ديار

وبعض النسابين يقولون إن أنمار اليمن أولاد أنمار بن نزار العدناني ولكنهم أقاموا بها فنسبوا اليها والصحيح أنهم من اليمن وجاء اللبس من أنه كان لانمار بن نزار بنت زوجها من أراش بن عمرو الكهلانى فولدت له ولدا أسماه على اسم جده لامه. فأنمار اليمن إذا هم بنو أنمار بن أراش وأنمار الحجاز بنو أنمار بن نزار على أنه قيل إن أنمار بن نزار لاعقب له إلا هذه البنت والانمار فى قحطان دون عدنان وفى هذا وجاهه .

العدنانيون

ولد عدنان معدا وولد معد نزارا وأنجب نزار فى أنمار وإياد وربيعة ومضر.

فأنمار سبق القول فيه والراجح أنه لم يعقب الا فى تلك البنت التى زوجها من أراش الكهلانى كما سبق وأنمار لليمن دون الحجاز .

وإياد فارق الحجاز وسار بأهله الى أطراف العراق وبها أقام ولم يزل النسب راجعاً إليه فى كل بنيه اذ لم يصلوا إلى كثرة على تطاول الايام .

وربيعة أعقب فى ضبيعة بالحجاز ولم تكثر بطونها وفى أسد ربيعة وفيها كثرة فمنها عنزة بخيبر وجديلة ومن جديلة عبد القيس بتهامة نجد والبحرين والنمر بالجزيرة ووائل ومن وائل تغلب بالبحرين ونجد والحجاز والشام. وبكر ومن بكر بنو حنيفة وبنو عجل باليمامة وبنو شيبان بالبحرين ومنهم سدوس ومضر أعقب فى قيس عيلان والياس

ومن قيس عيلان جاءت الكثرة التى لم تبن معها بطون ربيعة فغلبت قيس على سائر العدنانية حتى قيل قيس ويمن فمنها عدوان بالطائف وسليم بعالية نجد قرب خيبر ومازن وباهلة باليمامة وغطفان بين جبلى طيء ووادى القرى الى المدينة ومنها أشجع وعبس وذبيان ومن ذبيان فزارة ومن فزارة بدر ومازن الثانية ثم من قيس أيضا هوازن وهى أكثرها بطونا فمنها ثقيف على الاصح بالطائف وبنو سعد بالحجاز وبنو جشم بالسروات وهى تلال تفصل بين نجد وتهامة من البحرين الى الشام ثم بنو عامر باليمامة والبحرين ونجد والحجاز والشام والجزير ومنهم على التسلسل بنو كلاب فبنو هلال فبنو نمير فبنو عقيل

أما الياس فاليه يرجع نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أعقب فى قمعة وطابخة ومدركة. فقمعة لم يشتهر عقبه وطابخة منه مزينة بشمال الحجاز وضبة بشمال نجد وبالعراق وتميم بشرق نجد وشمالها ومن تميم العنبر وحنظلة ومن حنظلة يربوع ومن يربوع العنبر الثانية. بقى مدركة ومنه هذيل بالطائف وخزيمة ومنها الهون بين مكة والمدينة ومن الهون عضد والديش المعروفان بالقارة وكانوا رماة. ومن خزيمة أيضا أسد وفيها كاهل ودودان وكانوا بأجأ وسلمى الى أن أجلتهم عنها الى الشرق طيء كما سبق ثم كنانة بمكة وتهامة الحجاز ومنها عامر وعمرو وملكان ومالك وعبد مناة والنضر ومن مالك فراس ومن عبد مناة غنم وبكر وليث والحارث ومدلج وضمرة. أما النضر وهو قريش فابنه مالك وابن مالك فهر وأبناء فهر غالب والحارث ومحارب وابنا

غالب لؤى والادرم وأبناء لؤى كعب وسعد وخزيمة وعامر وابنا كعب مرة وعدى وأبناء مرة كلاب وتيم ويقظة وابنا كلاب قصى وزهرة وأبناء قصى عبد مناف وعبد الدار وعبد العزي وأبناء عبد مناف هاشم عبد شمس ونوفل والمطلب وأبناء هاشم عبد المطلب ونضلة وأسد وصيفى وأبو صيفى وأبناء عبد المطلب عبد الله والد رسول خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم والعباس والد الخلفاء العباسيين وأبو طالب والد أمير المؤمنين على بن أبي طالب وحمزة وانقرض عقبه وأبو لهب والحارث أعقبا ولم يعرف عقبهما ثم الزبير وعبد الكعبة وضرار وحجل وقثم والغيداق ولم يعقبوا

ثالثا — أيامها الكبرى ذوات الاثر فى الادب

لعلنا لا نغلو إذا قلنا إنه لم تتوافر لدي أمة ما أسباب التناحر والتقاتل والتنابذ والتطاحن بقدر ما توافرت لدى أمة العرب فى جاهليتها وبخاصة الشعوب العدنانية منها فقد انتشروا فى أنحاء الجزيرة العربية يطلبون لماشيتهم كلأها وينتجعون لارتياد مواقع الغيث أنحاءها فاذا ما أحل بقبيلة موطن طلبوا آخر ينتزعونه من غيرهم انتزاعا بأسنة الرماح وظبات السيوف وما أسرع ما يهرعون الى الغارة على عدوهم يلهبونها والى ظهور خيولهم يعتلونها فيكون الطعن والنزال والضرب والقتال ويكفى أن تكون غارة بين قبيلتين أساتقوم له الحرب على قدم وساق فتبقى آماد او آجالا يشب أوارها بين آونة وأخرى طلبا لثأرات أو انتقاما بمال يغصب وقد يستجير المطالب بقبيل يأبي الا أن ينصره قياما بحق الجوار ويدافع عنه كما يدافع عن نفسه فيغزى لذلك ويقاتل وتكون هناك حرب أخرى وغالبا ينضم فيها حليف لحليف على أنه لم تخل الجزيرة العربية من حروب حفز اليها الدفاع عن ملك أو الانتصار لمتبوع أو التعصب على عمومه أو فى خصوصه ولا نظن أن أيام العرب الكبرى الى غير ذلك ترجع فطلب العيش والاخذ بالثأر وحماية الجار ومساعدة الحليف ثم ما قفينا به من الدفاع عن الملك

ونصرة المتبوع والتعصب كل أولئك كان من أجله تقوم الحروب

وإذ سبق هنا أن العدنانية كانت المسعر لهذه الحروب وتقدم فى ذكر الانساب أن كثرتها كانت تزخر بتغلب وبكر فى ربيعة وبهوازن وغطفان وجشم وسليم فى قيس وبتميم فى طابخة ثم بكنانة وقريش فى مدركة فانا سائقون لذلك أشهر حروب هذه القبائل مسبوقة ببعض ما كان بين نزار واليمن ومتلوة ببعض آخر هو ما كان بين العرب والفرس مع ذكر بعض ما كان لليمن خلال ذلك لمناسبة

بين نزار واليمن

يوم الكلاب الثاني — بين مذحج وتميم وسببه أن تميما نزلت الكلاب وهو ماء بين اليمن والبحرين طوله مسيرة يوم فعلمت مذحج فأغارت عليها فدارت الدائرة على مذحج وكان رئيس تميم قيس بن عاصم ورئيس مذحج عبد يغوث وقد أسر وفى أسره هذا قال قصيدته المشهورة التى مطلعها :

ألا لا تلوماني كفى اللوم ما بيا فما لكما فى اللوم خير ولا ليا

قالها يلوم قومه على هزيمتهم ويعتذر لنفسه عن أسره ذاكرا ما كان له قبل من بلاء ومعددا بعض مفاخره الماضية كما لبنى تميم مفاخر جمة بهذا اليوم الذى نادى فيه قيس وقد ولت مذحج الادبار يا آل تميم لا تقتلوا الا فارسا فان الرجالة لكم ثم جعل يرتجز ويقول:

لما تولوا عصبا هواربا أقسمت لا أطعن الا راكبا

إني وجدت الطعن فيهم صائبا

يوم خزازى — ويقال له خزاز جبل يتوسط الطريق بين مكة والنصرة وهو من أقدم الأيام بين نزار واليمن وكان رئيس نزار فيه على غلبة الظن كليبا التغلبي أو هو قد أبلى فيه بلاء بينا وهزمت اليمن فيه هزيمة نكراء

وبعده خرجت نزار عن سلطة اليمن ونهضت جباية تبابعته بعد أن كان رسولهم يأتى ومعه كاتب وطنفسة يجلس عليها فيأخذ من أموال نزار ما يشاء وليس بمعروف عن هذا اليوم شعر يعاصره ولكنه ذكر على ألسنة الشعراء بعد كعمرو بن كلثوم التغلبي حيث يقول :

ونحن غداة أوقد فى خزازى رفدنا فوق رفد الرافدينا
فكنا الايمنين اذا التقينا وكان الايسرين بنو أبينا
فصالو صولة فيمن يليهم وصلنا صولة فيمن يلينا
فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا

حروب ربيعة

أهمها البسوس بين تغلب وبكر ابنى وائل وذلك أن تغلب أخذت بعد خزازي مكانا عليا فى العرب وملك كليبها فعظم شانه وعلا علوا كبيرا وبلغ من كبريائه أن صار يحمى مواقع الغيث والوحش فيقول كلأ كذا فى حماى ووحش كذا فى جوارى وحدث أن كانت البسوس بنت منقذ خالة جساس ابن مرة عند ابن أختها هذا وكانت لها ناقة رأت أبل كليب ترد فوردت معها فرماها كليب بسهم خرم ضرعها فولت وهو يشخب لبنا فلما رأتها البسوس قذفت خمارها عن رأسها وذهبت الى جساس صائحة واذل جاراه فأحمسه ذلك على ما كان من ظلم كليب وحسد بكر لتغلب فذهب الى كليب مسرعا فطعنه فقصم صلبه وكان معه عمرو بن الحارث الشيبانى فطعنه فقطع بطنه فوقع يفحص برجله وقيل فى مضرب المثل (تجاوزت شبيثا والأحص) وهما ماءان إن قاتله جساس إذ قال له كليب حين وقع أغثنى بشربة من ماء. وفى تصداق ذلك يقول عمرو بن الاهتم

وان كليبا كان يظلم قومه فادركه مثل الذى تريان
فلما حشاه الرمح كف ابن عمه تذكر ظلم الاهل أى أوان
وقال لجساس أغثنى بشربة والا فخبر من رأيت مكانى
فقال تجاوزت الاحص وماءه وبطن شبيث وهو غير زؤان

فهاجت بمقتل كليب حرب البسوس التى مكثت طويلا من الدهر بين تغلب وبكر ابنى وائل وكان المهلهل أخو كليب المعروف بالزير لما كان عليه من اللهو واستدامة التحدث الى النساء حامل لوائها على بكر وشيبان ومن والاهما لا يقنعه فى ذلك مقنع ولا يقف فى القتال عند حد . يدل على ذلك أمثال قوله

أكثرت قتل بنى بكر بربهم حتى بكيت وما يبكى لهم أحد
آليت بالله لا أرضى بقتلهم حتى أبهرج بكرا أينما وجدوا

وقوله

قتلوا كليبا ثم قالوا أربعوا كذبوا ورب الحل والاحرام
حتى تبيد قبائل وقبيلة ويعض كل مثقف بالهام
وتقوم ربات الخدور خواسرا يمسحن عرض ذوائب الايتام

وقوله

يال بكر أنشروا لى كليبا يال بكر أين أين الفرار

ولما أسرف مهلهل فى الدماء وكانت لتغلب على بكر أيام كثيرة كالذنائب وعنيزة والحنو ثم واردات الذى قتل فيه بجير بن الحارث بن عباد أو ابن أخيه وكان الحارث اعتزل تلك الحروب فلما بلغه قتل بجير هذا قال نعم القتيل قتيلا أصلح بين ابنى وائل وظن أن المهلهل أدرك به ثأر كليب وجعله له كفؤا فقيل له إن مهلهلا لما قتل بجيرا قال له « بؤ بشسع نعل كليب » فغضب الحارث وتولى

أمر بكر ولم يزل يقتل تغلب حتى تفرقت وهرب المهلهل وفى ذلك يقول الحارث وكانت له فرس تدعى النعامه

قربا مربط النعامة منى إن بيع الكريم بالشسع غالى
قربا مربط النعامة منى لقحت حرب وائل عن حيال
لم أكن من جناتها علم الله وإني بحرها اليوم صالى
قرباها فى مقربات عجال عابسات يثبن مثل السعالى
لا بجير أغنى قتيلا ولا رهط كليب تزاجروا عن ضلال
يا بجير الخيرات لا صلح حتى نملأ البيد من رءوس الرجال

وكان اليوم الذى انتهى بتفرق تغلب وهرب مهلهل يوم قضة وهو يوم تحلاق اللمم وبه تفخر بكر. ولما هرب مهلهل انتهي الى جنب وهم بطن من مذحج وكانت معه ابنته فخطبوها فتمنع فاجبروه وأمهروها جلودا وفى ذلك يقول متحسرا على عزفات

أعزز على تغلب بما لقيت أخت بنى الاكرمين من جشم
أنكحها فقدها الاراقم فى جنب وكان الحباء من أدم
لو بأبانين جاء يخطبها زمل ما أنف خاطب بدم

ولمهلهل فى رثاء كليب وبكائه القصائد الطويلة

منها التى مطلعها

أليلتنا بذى حسم أنيرى اذا أنت انقضيت فلا تحورى

والتى مطلعها

بت ليلى بالانعمين طويلا أرقب النجم ساهرا أن يزولا

والتى يقول فيها

كليب لا خير فى الدنيا ومن فيها اذ أنت خليتها فيمن يخليها

ومما يذكر من شعر العاطفة المتحيرة هنا شعر جليلة أخت جساس وامرأة كليب اذ قالت لها اخت كليب ياهذه اخرجي عن مأتمنا فانت أخت وابرنا وشقيقة قاتلنا وشيعتها بقولها حين خرجت «رحلة المعتدى وفراق الشامت» فقالت جليلة وكيف تشمت الحرة بهتك سترها وترقب وترها أفلا تقولين «نفوة الحياء وخوف الاعتداء» ثم أنشأت تقول

يا بنة الاقوام ان شئت فلا تعجلى باللوم حتى تسألى
فاذا أنت تبينت الذي يوجب اللوم فلومى واعذلى
ان تكن أخت امرىء ليمت على شفق منها عليه فافعلى
جل عندى فعل جساس فيا حسرتى عما انجلى أو ينجلى
فعل جساس على وجدى به قاصم ظهرى ومدن أجلى
يا قتيلا قوض الدهر به سقف بيتى جميعا من عل
هدم البيت الذى استحدثته وانثنى فى هدم بيتى الاول
يانسائى دونكن اليوم قد خصنى الدهر برزء معضل
خصنى قتل كليب بلظى من ورائى ولظى من أسفلى
ليس من يبكى ليوميه كمن إنما يبكى ليوم مقبل
يشتفى المدرك بالثأر وفى دركى ثارى ثكل الثكل
انى قاتلة مقتولة ولعل الله أن يرتاح لى

بين ربيعة وغيرها

من أعرف الحروب بين ربيعة وغيرها ماكان بينها وبين تميم وذلك أن بكرا اعتادت أن تنتجع أرض تميم ترعى بها فاذا ما أرادت الرجوع لم تدع عورة تصيبها ولا شيئا تظفر به الا اكتسحته وكان ذلك منذ القديم فاجمعت

تميم رأيها على مدافعة بكر وبهذا كانت لا تنطفىء بينهما نار حرب ولهذا كانت تميم تنضم الى تغلب على بكر فى حرب البسوس ثم إن الغلبة اكثر الايام كانت لتميم وان كانت الأيام حافلة بالمفاخر لكلا الطرفين

فمن أيام بكر على تميم يوم الزورين وهما جملان أتت بهما تميم مقرونين مقيدين وقالوا لا نولى حتى يولى هذان «والبعير اذا قيد فهو زور أو زوير مأخوذ من الزيار وهو ما يزير به البيطار الدابة» فاخبرت بكر رئيسها وهو عمرو بن قيس بن مسعود الاصم بذلك فقال وأنا زويركم إن خشوهما فخشوني وإن عقروهما فاعقروني ثم التقوا فاقتتلوا قتالا شديدا انهزمت فيه بنو تميم وقتل منهم أبو الرئيس النهشلى وغيره كثير وأخذت بكر الزورين وفى ذلك يقول الاغلب العجلى

جاءوا بزوريهم وجئنا بالاصم ... شيخ لنا قد كان من عهد إرم
فكر بالسيف اذا الرمح انحطم ... كهمة الليث اذا ما الليث هم
كانت تميم معشرا ذوى كرم ... مخلصة من الغلاصم العصم
قد نفخوا لو ينفخون فى فحم ... وصبروا لو صبروا على أمم
اذ ركبت ضبة أعجاز النعم ... فلم تدع ساق لها ولا قدم

ويقول رجل من بنى سدوس

ياسلم إن تسالى عنا فلا كشف ... عند اللقاء ولسنا بالمقاريف
نحن الذين هزمنا يوم صبحنا ... جيش الزويرين فى جمع الاحاليف
ظلوا وظللنا نكر الخيل وسطهم ... بالشيب منا وبالمرد الغطاريف

ومن أيام تميم على بكر يوم بلقاء الحسن «والحسن جبل» وفيه قتل بسطام بن قيس سيد بنى شيبان قتله عاصم بن خليفة الضبى فقال ابن غنمة الضبى يرثيه وكان

مجاورا اذ ذاك فى بنى شيبان وخاف أن يقتلوه

لأم الارض ويل ما أجنت بحيث أضر بالحسن السبيل
يقسم ماله فينا ويدعو أبا الصهباء إذ جنح الاصيل
فان تجزع عليه بنو أبيه فقد فجعوا وحل بهم جليل
بمطعام إذا الاشوال راحت الى الحجرات ليس لها فصيل

ومنها البيت المشهور يخاطبه فيه

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

ومما يعد من حروب ربيعة وان كان الباعث فيه لا يعدو الدفاع عن ملك ما كان بين شرحبيل ومسلمة ابنى الحارث بن عمرو الكندي وكان قد ملك على بكر بن وائل برضاهم من قبل أحد التبابعة لما تقاطعت أرحامها وغلبتها سفهاؤها فأحسن قيادها وغلب بها على كثير مما كان فى أيدى ملوك الحيرة اللخميين وملوك الشام الغسانيين فلما مات اختلف ابناه هذان على الملك فكانت بكر مع شرحبيل أكبر الاخوين وانضمت تغلب نكاية فى بكر الى مسلمة وكان يوم الكلاب الاول وفيه قتل شرحبيل

بين اللخميين والغسانيين

وعلى ذكر الدفاع عن الملك وذكر اللخميين والغسانيين نقول إن من الحروب العربية الكثيرة الوقائع الشديدة الايام ما كان بين هذين الجذمين من اليمن لان ضلع الغساسنة كان مع الروم وضلع اللخميين كان للفرس فسلطت كلتا الدولتين تبيعها على الآخر ومن أشهر ما كان بينهما من أيام يوم حليمة وما يوم حليمة بسر ارتفع فيه من العجاج ماغطى عين الشمس حتى ظهرت الكواكب

وكان بين الحارث بن أبي شمر الغساني والمنذر بن ماء السماء اللخمى وحليمة هذه ابنة الحارث ونسب اليوم اليها لانها أخرجت لابطال أبيها مركنا به طيب تطيبوا منه والمركن الاجانة

بين الاوس والخزرج

وقبل أن توجد حرب داخل الجزيرة لليمن غير ماتقدم الا ماكان بين الاوس والخزرج وهو قليل وأشهر أيامه يوم بغاث وهى مزرعة فى ديار بنى قريظة من اليهود وكانت لهم رهائن عند الخزرج فغدر بها عمرو بن النعمان البياضى رئيسهم فاعانوا عليه حضير الكتائب رئيس الاوس وفيه انهزمت الخزرج ولكن أصيب حضير بجراح مات متاثرا بها وفى ذلك يقول خفاف بن ندبة وكان له صديقا يرثيه

أتاني حديث فكذبته وقيل خليلك فى المرمس
فياعين بكى حضير الندى حضير الكتائب والمجلس

حروب قيس

١ — بين عبس وذبيان

أهمها داحس والغبراء بين عبس وذبيان وكان سببها أن قيس بن زهير العبسى وحمل بن بدر الفزاري «وفزارة من ذبيان» تراهنا على مائة بعير يأخذها من يكون له السبق وكان داحس فحلا لزهير والغبراء حجر الحمل وكان فى طرف الغاية شعاب كثيرة فأكمن فيها حمل فتيانا وأمرهم أن يردوا وجه داحس اذا جاء سابقا فلما برز داحس قال قيس « جرى المذكيات غلاء »

فذهبت مثلا ولكن لما شارف الغاية وثب الفتية فى وجهه فردوه عنها فسبقت الغبراء وامتنع قيس أن يدفع الرهان لما كان من عمل الفتية وكاد الناس يسكنون لولا أن حذيفة أخا حمل بعث ابنه مالكا الى قيس يشدد فى طلب الرهان فقتله قيس فاجتمع الناس واحتملوا ديته مائة عشراء ولكن حدث أن علم حذيفة بنزول مالك بن قيس بعيدا عن قومه فعدا عليه فقتله فقالت عبس مالك بمالك وردوا علينا مالنا فابي حذيفة فقال الربيع بن زياد العبسى وكان الذى احتمل الدية عن قيس ولم يكن فى العرب مثله ومثل إخوته وكان يقال لهم الكملة لبئسما فعلتم بقومكم قبلتما الدية ورضيتم بها ثم غدرتم ردوا الدية فلم يسمعوا فنهض بعبس وحلفائها الى فزارة وذبيان ورئيسهما حذيفة وبدأت حرب داحس التى مكثت طويلا حتى كاد ينقرض لها الطرفان وأيامها دامية كثيرة منها المريقب لعبس على فزارة وفيه قتل عنترة الفوارس ضمضما المرى أبا حصين وهرم اللذين توعدا عنترة فقال فيهم من معلقته

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر للحرب دائرة على ابنى ضمضم
الشاتمى عرضى ولم أشتمهما والناذرين اذا لم آلقهما دمى
إن يفعلا فلقد تركت أباهما جزر السباع وكل نسر قشعم

ومنها الهباءة لعبس على ذبيان وفيه قتل حمل بن بدر وأخوه حذيفة ومثل بهما فعظم على غطفان قتلهما وكذا سائر قتلى الهباءة وتجمعت على عبس فعرفت عبس أن ليس لها مقام بارض غطفان فخرجوا الى اليمامة فنزلوا ببنى حنيفة ثم غادروهم الى بنى سعد فغدروا بهم ولم تزل الارض بعبس نابية وذبيان ومن تحمس لنصرتهم من غطفان ينالون منهم حتي أصلح بينهما هرم بن سنان والحارث بن عوف المريان وتحملا الديات والى ذلك يشير زهير وكان منقطعا

الى مدح هرم فى معلقته حيث يقول

فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله ... رجال بنوه من قريش وجرهم

يمينا لنعم السيدان وجدتما ... على كل حال من سحيل ومبرم

تداركتما عبسا وذبيان بعدما ... تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

وقد قلتما إن ندرك السلم واسعا ... بمال ومعروف من القول نسلم

فأصبحتما منها على خير موطن ... بعيدين فيها من عقوق ومأثم

عظيمين فى عليا معد هديتما ... ومن يستبح كنزا من المجد يعظم

الى آخر ما أفاض فى هذا الموضع . وفى قتلى الهباءة كثير من المراثى والاشعار لما أصابت من سادة وماوقع فيها من تشف وتمثيل

٢ — بين هوازن وغطفان

ومن حروب قيس أيضا . ما كان بين هوازن وغطفان وذلك أن هوازن كانت تؤدى إتاوة الى زهير بن جذيمة العبسى فأتته عجوز من كلاب بسمن فى نحى واعتذرت اليه وشكت سنين تتابعت فذاقه فلم يرض طعمه فدعس المرأة بقوس فى يده فاستلقت على قفاها منكشفة فتألى خالد بن جعفر الكلابي ليجعلن ذراعه فى عنقه حتى يقتل أحدهما ثم استقل زهير عن قومه بابنيه ورقاء والحارث فخرج خالد ومعه معاوية الاخيل جد ليلى الاخيلية وأحس زهير فركب فرسه القعساء ولكن معاوية وخالدا أدركاه فطعن معاوية القعساء فقلبت زهيرا وخر خالد فوقه فرفع المغفر عن رأسه وضربه معاوية على مفرقه ضربة بلغت الدماغ وانصرفا دون أن يغنى فيهما ضرب ابنى زهير لكمال عدتهما وفى ذلك يقول خالد

بل كيف تكفرني هوازن بعدما أعتقتهم فتوالدوا أحرارا
وقتلت ربهم زهيرا بعد ما جدع الانوف وأكثر الاوتارا
وجعلت مهر بناتهم ودياتهم عقل الملوك هجائنا وبكارا

ثم حدث أن خالد بن جعفر هذا انتقص الحارث بن ظالم المرى الذبيانى وكان رئيس غطفان بعد زهير بقوله ألا تشكر يدى عندك أن قتلت عنك سيد قومك زهيرا وتركتك سيدهم فقال سأشكر وحقد عليه وقتله منصرفهما من لدن الاسود بن المنذر أخى النعمان وكان الانتقاص بمجلسه ثم هرب فكانت لذلك أيام بين هوازن وغطفان وكان للحارث فى هربه هذا أخبار طويلة وأحاديث شتى ذات ضروب وألوان ثم كانت منيته على يد يزيد بن عمرو الغساني وكان جارا له فقتل فى قومه وهو مستجير فعفا عنه ثم قتل ثانية فلم يتركه دون قصاص وقتله

ومما كان بين هوازن وغطفان غير هذه أيام تلت اغارة عبد الله بن الصمة الجشمى على غطفان يوم اللوى واستياقه سرحهم ثم لحاق غطفان به وهو مقيم ينتقع وقتلها إياه فى وقعة جرح فيها أخوه دريد صاحب القصيدة التى منها البيت

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصح الا ضحى الغد

والتى يرثى فيها عبدالله ويذكر ما كان من خلفه له فى الاقامة للانتقاع وكان من أشد الايام بعد ذلك يوم الصلعاء وفيه قتل دريد هذا

٣ — بين سليم وغطفان

ومن حروب قيس أيضا ما كان بين غطفان وسليم على أثر نزاع قام

بعكاظ بين معاوية بن عمرو بن الشريد السلمى وهاشم بن حرملة الغطفاني، تهيأ معاوية بعده وغزا هاشما على كره من أخيه صخر فقتل هاشما وتتابعت لذلك أيام لم يقفها الا إصابة صخر بطعنة اعتل بها طويلا ثم مات وليس يجهل أحد ما كان للخنساء أختها فى هذا الباب من بكاء ورثاء .

بين قيس وغيرها

ولم تك الحروب فى قيس قاصرة على بطونها بل كان بينها وبين غيرها أيام أهمها : —

١ — بين عامر وتميم

فمنها ما كان بين عامر وتميم وسببه أن الحارث بن ظالم المري الذبيانى قاتل خالد بن جعفر الكلابى العامرى على ما مر آنفا التجأ الى معبد بن زرارة التميمى شطرا من أيام هربه فأجاره وعلمت بذلك عامر فغزت بنى تميم يوم رحرحان وفيه أسر معبد وأبت عامر فيه الا دية الملوك وأبى أخوه لقيط دفعها عملا بوصاة أبيهما زرارة حتى لا تذؤب بهم ذؤبان العرب ومات معبد فى أسره هزالا لحبسه نفسه عن الطعام والشراب. ثم انضمت ذبيان لتميم وغزوا عامرا وقد انضمت اليها عبس لما كان بين عبس وذبيان فى داحس والغبراء فالتقى الجمعان فى شعب جبلة وهو من أعظم أيام العرب ولكن دارت الدائرة على تميم أيضا فقتل لقيط ولحق تميما من ذلك الضعف الكبير

٢ — بين سليم وكنانة

ومنها ما كان بين سليم وكنانة وسببه أن ربيعة بن مكدم من بنى فراس بن

غنم وهو فارس الظعينة قتل ثلاثة فوارس من قيس أرادوا استلابها منه بوادي الاخرم وهو لكنانة وكانوا مغيرين عليه مع دريد بن الصمة فاغارت سليم بعدئذ على كنانة يوم الكديد وفيه قتل ربيعة فتبع ذلك أيام من كنانة على سليم كانت الغلبة فيها دولة بين الطرفين . وفيها وفى يوم الظعينة كثير من رائق الشعر وجليل الرثاء والفخر

٣ — بين هوازن وكنانة

ومنها ما كان بين هوازن وكنانة وأشهرها الفجار الرابع . وسببه أن البراض بن قيس الكنانى وعروة الرحال رجل هوازن كانا عند النعمان وقد جهز عير اللطيمة وهى إبل تحمل تجارة لكسرى الى أسواق العرب من البز والطيب فقال من يجيرها فقال البراض أنا أجيرها على بنى كنانة فقال النعمان ما أريد الا رجلا يجيرها على أهل نجد وتهامة فقال عروة أكلب خليع يجيرها لك أبيت اللعن أنا أجيرها فقال البراض أعلى بنى كنانة ياعروة قال وعلى الناس كلهم فدفعها النعمان الى عروة وحنق عليه البراض فتبعه وهو لا يخشى منه شيئا فقتله واستاق اللطيمة الى خيبر فقامت لذلك حرب بين هوازن وكنانة تشيب لهولها الولدان وجعلت تتجدد كل عام فى ميعادها من الاشهر الحرم حتى كانت خمسة أيام فى أربع سنين تداعى الناس بعدها الى السلم بدافع من أنفسهم كأن العرب كانت تستعد لحدث جديد هو حلول الوفاق محل الخلاف قبيل مجىء الاسلام الذى ألف بين قلوبهم فاصبحوا بنعمته اخوانا .

أيام ذى قار بين العرب والفرس

وذو قار ماء قريب من البصرة وكان سببها أن كسرى غدر بالنعمان بن

المنذر وقتله فى المدائن وكان النعمان قد أودع سلاحه هانىء بن قبيصة بن هانىء ابن مسعود الشيبانى وجعل عنده ابنته هندا وهى حرقة فطلب كسرى السلاح وأب هانىء فكانت الحرب وفيها تضامت العرب وانتصرت نصرا مبينا قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قد بعث « اليوم أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبي نصروا ». ولايام ذى قار فى نفس كل عربي مقام يعتز به ولذلك أكثرت العرب جميعا من التفاخر بها والتباهى بذكرها وفيها كانت خطبة هانىء المذكور يحرض قومه بكرا على القتال ومنها

يامعشر بكر هالك معذور خير من ناج فرور ان الحذر لاينجى من القدر وان الصبر من أسباب الظفر المنية ولا الدنية . استقبال الموت خير من استدباره الطعن فى ثغر النحور أكرم منه فى الاعجاز والظهور يا آل بكر قاتلوا فما للمنايا من بد

رابعا ـ اثر تلك الايام فى الادب

تقدمنا آنفا بطائفة من أيام العرب ذكرنا بواعثها ووضحنا أسبابها لتكون تمهيدا لما نعالجه الآن من أثر تلك الايام فى الادب . واذ كانت تلك البواعث وهذه الاسباب متصلة بعيشهم وان شئت فقل هى نفس عيشهم وكان الشعر ديوانهم الذى اليه يحتكمون وبه يفتخرون فقد فاض عليه من الايام مالولاه لغاض معينه وصوح نبته فلم نره كما نراه الآن تلك الروضة المعطار ذات الغصون الناضرة والاطيار الشادية

حببت الحرب الى نفوس العرب وهى طبيعة فيها صفة الشجاعة والنجدة والبأس والقوة بقدر ما بغضت اليهم الخور والضعف والجبن والهلع فكانوا فى حضهم عليها واصطلائهم نارها وانتشائهم بلذه الظفر فيها يقولون الشعر شعر

الحماسة والفخر فيصدر منهم جزل الالفاظ شريف المعاني نبيل المقاصد يحرك من القلوب الضعيفة ويهون الموت على الاعزة الاحياء ثم ينثنون الى بكاء قتلاهم وتعداد بلائهم تخليدا لمآثرهم وذكراهم فاذا هذا شعر الوجدان الباكي والعاطفة الاليمة ممزوجة بما يخفف على الحي رزء المفقود ويجعله يأنف أن يموت حتف أنفه ويعد من النقيصة والعار ألا تكون منيته بطعنات الرماح وضربات السيوف وأى أمر غير هذا جعل أبا تمام الطائى يسمى ما اختاره من شعرهم ديوان الحماسة ويجعل اكثر من نصفه خالصا لها ولما كان حتما مقضيا بعدها من الموت فالتأبين فالرثاء .

تأمل عيون الشعر الجاهلى فحيث ترى العين قذافة لا ينقطع ماؤها لا تنى ترمى بكل مقطعة منه متماسكة الالفاظ متعاشقة المعانى تجدها من هذين البابين وهل لغيرهما ومنشؤهما ذكر الفجيعة فى الميت واستخلاص الحياة للحى من الاتصال بقرارة النفوس وتحريك ما كمن فيها مثل ما لهما اللهم لا . ثم يتصل بهذين البابين عن قرب التفاخر باجارة الجار واغاثة الملهوف ونصرة المظلوم وعن بعد التمدح بقري الاضياف وايواء الطارقين وما لنا نبعد بالقرى والايواء عن مواطن الشجاعة والاقدام وهما راجعان الى الكرم والكرم والشجاعة صنوان ومن أصل واحد ينبتان هو السماحة وما تقتضيه من بذل يقع فى المال فيكون سخاء وكرما ويرتفع الى أقصى غاية الجود تضحية بالنفس فيكون شجاعة واقداما . أفلا نحس اذن أن الشعر العربي اذا تجرد مما أثر فى هذه الناحية الواسعة الاطراف يصبح قاعا صفصفا أو يعدم أقل ما يصاب جواهر تاجه ووسائط عقوده فيذهب ماؤه ويضيع بهاؤه

ثم كان من عادة العرب فى الحروب أن يسيروا ليلا ليدهموا بالغارة صبحا فكان من هذا سرى الليل وتعريسه وهول ذلك وخوفه وما اتصل بالسرى

من ذكر الليل نفسه فى دجنته وظلمائه أو فى سمائه بما يسطع فيها من بدر أو يهدى من نجم وهذا منحى آخر من القول بين التأثير فى اللغة والتأثر بالايام

وحتى اذا هدأت الحرب ووضعت أوزارها كانت تفيض على اللغة بالممتع الكثير منها ففى الدعوة الى السلم ونفعها والتنكب عن الحرب وضرها من الخطب والوصايا والحكم والمواعظ وضرب الامثال والشواهد ما استنفد جلها وأخذ كثرها ولو تتبعنا هذه الناحية نحصيها مع ما اتصل بها من صلح ووئام ومغارم ومحامل وديات يفرق فيها بين عربي صريح وآخر مقرف أو هجين لوجدنا الشطر الاكبر فى النثر الجاهلى الى هذا ينسب كما نسب نظيره فى الشعر الى الحماسة والرثاء وما تعلق بهما أو انشعب منهما

وان لنا أن نعتبر عناية العرب بأنسابها وحفظها لمفاخرها وأحسابها الى ذلك الحد الذى لم تعرفه أمة غيرها راجعة الى ولعها بالحرب أيضا حتى اذا ما دهمت داهمة كان كل اعرف بقبيله وعشيرته وناصره ومولاه واذا ما طلب ثأر كان معروف المحل ومن هو منه قريب أو بعيد فاذا ما حانت المفاخرة والمنافرة كانت الاصول التى تقع عليها معروفة غير مجهولة لا تطاوع عربيا أن يدعى غير أبوته أو ينتسب الى غير قومه ولذا كان الادعياء نورة فى العرب محل ضعة منهم وتهجين

ثم ما نظن عناية العرب بالخيل تلك العناية البالغة مبالغها الدقيقة فى تناولها الا منسوبة الفضل الى الايام : فما تستتب شجاعة الشجعان فترى منهم البلاء والغناء الا بالخيل عليها يكرون وبها يقتحمون وهل أدل على شدة التلازم بين الشجاعة والخيل من تسمية الرجل على الفرس فارسا فاذا ما كان على بغل او حمار قيل بغال وحمار وألا يكون أخذ الفرس من الفرس وهو الهصر والكسر والخيل من الخيلاء وهى الدل والعجب آية أخرى على هذا التلازم

واذن فما تبع تلك العناية من الاكثار الكثير فى أسماء الخيل ونتاجها وعتقها وصفاتها مما ألفت فيه كتب ولم يسعه كتاب ثم ما كان من تفضيل العربي لجواده على نفسه فى الزاد وجعله وإياه جزءا لا ينفصل منه فى التفاخر بالاستبسال إن هو الا من الحرب نشأ ولأجل القتال كان .

أوليس على أيام العرب وحروبها قامت صناعة السيوف والرماح وسائر عدد الحرب والقتال من مغافر ودروع ولجم وسروج وهـذا ضرب آخر أفاض على اللغة الغنى والثراء مفردات وتراكيب وأخيلة وأوصاف . فالسيف فى صقاله ولمعانه وحدته ومضائه والرمح فى اعتداله واستوائه وصلابته وملدانه ثم غيرهما مما تقدم فيما لهما من صفات وأحوال وليس ذلك بالخفى المجهول قد فتح فى اللغة فتحا مبينا ونماها نموا كبيرا .

على أن العرب لم تقف عند الخيل ووصفها والآلات ونعتها بل تلفتت الى ماحولها من حيوان غير أليف فاذا بالاسد قد امتلك عليها لبها وشغل منها قلبها وفؤادها فلم كان الشاغل دون غيره ألا إن ذلك لما جبل عليه العربي من الولع بالقتال وتمجيد الجرأة على المقارعة والنزال فأخذ يعنى بهذا الحيوان يبحث عن أحواله ويتشبه به فى صفاته وأفعاله حتى أحله من نفسه محلا رفيعا وجعله على سائر الوحش سلطانا ومليكا وليس بخاف على أحد ماورد باللغة عن هذا الحيوان من أسماء ونعوت وما قذفت به ألسن الحمية والنجدة عنه من آيات اكبار واجلال . ثم لم يعدم غيره من الحيوان الضارى أن ينال من ذلك بقدر ضراوته كالنمورة والفهود والضباع والذئاب وان كان فيما اختص به الاسد دونها من نبل وكرم وعلو وترفع فوق ما تقدم عنه من قوة وجرأة ماجعله المقصود لدى العرب بالتجلة والاعظام والمتشبه به فى كثير من الصفات والخلال وصرفهم عن غيره الى القول فيه اكثر ما يقولون

وهل أقدمت العرب على تسمية قبائلها وبطونها وأولادها وفتيانها بالكريه من أسماء الحيوان كأسد وفهد ونمر وذئب ثم من غير الحيوان كحجر وصخر وجشم وعبس الا محبة لتلك الاسماء وتفاؤلا لبنيهم أن يكونوا من صفات ذواتها على كمال فيحموا الحوزة ويدافعوا عن العشيرة ويكونوا للحروب أهلا ولمقارعة الابطال كفاء .

وهل اذ انطوى بساط الجاهلية بما كان عليه من شجار وعراك واشتباك وقتال بما قد نشر الاسلام من لواء سلامه ومد من ظل عدله ووئامه انقطع مدد الايام للادب أو وقفت حركتها الدافعة له كلا فقد مكثت أيام الجاهلية الاولى مددا للشعراء غير مقطوع ومفاخر يبتعثون تراثها غير خاق ولا مجدوع نقرأ ذلك مستجيدين ولآثاره حامدين مستكثرين من لدن صدر الاسلام فى مفاخر الفرزدق وجرير الى حيث قطع العصر العباسى عهد شبابه وصباه على أيام البحترى وأبى تمام .

واذن فهذه كلمة انتظمت أثر الايام فى الادب وما كان لها عليه من فضل ونماء وهى على ما ترى تتناول الشعر والنثر كليهما أمثلة لها وشواهد عليها الا ماقل منهما ومن ثم يسوغ لنا أن نقول غير مبالغين ولا متجنين إن أيام العرب وأدب العرب يكادان يكونان شيئا واحدا لا شيئين ولذا كان الحض على تعرف أيامهم فى القديم بمثابة الوصاة على تعلم آدابهم لا لبس فى ذلك ولا كبير افتراق.

اللغـــــــة

نشأة اللغات وتعددها — اللغات السامية وأصل العربيه طرق نمو العربية وخصائصها — اختلاف لهجاتها وعوامل تهذيبها

أولا — نشأة اللغات وتعددها

احتاج الانسان إلى التفاهم وكان التفاهم بالالفاظ ليسرها وعمومها أفيد أنواع الدلالات فاستعملها فنشأت اللغات ولكنّ فى كيفية هذه النشأة خلافا طويلا دب بين العلماء الأقدمين ولا زال جاريا منهم إلى المحدثين

فعباد بن سليمان الصيمرى يقول إن دلالة الألفاظ على معانيها ذاتية لا توقيف فيها ولا تواضع مستدلا على ذلك بوجود مناسبة بين كثير من الالفاظ ومعانيها وبأنه لولا هذه العلاقة الذاتية لكان اختيار لفظ دون آخر ترجيحا بلا مرجح . وهذا القول مردود فى جملته وتفصيله وإلا لزم أن يفهم الانسان اللغة بل اللغات جميعا دون تعليم وهذا مالا يكون . أما تلك المناسبة فمع ثبوتها لبعض الألفاظ وخصوصا الصوتى منها لا تنهض دليلا لانعدامها فى الأعم الأغلب ويكفى أن يكون مجرد خطور اللفظ دون غيره على الذهن مرجحا له ودافعا إلى اختياره على أن تلك المناسبة لو كانت الأساس لما كان فى لغة من اللغات لفظ يستعمل فى المعنى وضده كما هو مشاهد وكثير.

وأبو الحسن الأشعرى يقول انها توقيفية أتت بوحى من الله سبحانه وتعالى

وتبعه فى ذلك أبو على الفارسى محتجا بقوله تعالى « وعلم آدم الأسماء كلها » ولكن الآية ليست بالدليل القاطع فى الموضوع إذ يجوز أن يكون المراد بالأسماء أسماء الملائكة أو بالتعليم الاقدار على المواضعة لا التعليم المباشر.

والذي عليه الجمهور وبه قال ابن جنى فى خصائصه هو أن اللغة تواضع واصطلاح وجدت المناسبة أم لم توجد تحقق القصد فى التواضع أم جاء عفوا بالارتجال. وأن الالهام من الله سبحانه وتعالى بمعنى الأقدار ثابت فى الحالين وبيان ذلك أن الحيوان يعبر عن وجدانه بأصوات تختلف باختلاف مطالبه كما نراه ولما كان الانسان لابد أن يفضله فى ذلك لما فيه من قوة الادراك ومطاوعة الصوت فقد استغل مطاوعة الصوت فى تنويع الحروف وقوة الادراك فى ارتجال بعض الالفاظ فكان بهاتين القوتين عندما يريد أن يُفهم أو يستفهم يصيح لغيره بصوت محكى أو مرتجل يتوسم فيه الافصاح عما يريد مضيفا اليه مايزيده ايضاحا من اشارة حسية أو قرينة حالية فاذا مافهم غرضه منه كرره وكرره حتى يستقل بأداء معناه دون حاجة إلى اشارة أو قرينة وعلى هذا النحو منه ومن غيره تكونت النواة الاولى للتفاهم الضرورى ثم أخذت تتسع وتنمو بما يتفقون عليه من غير تعمل ولا قصد حتى كانت لغة الانسان الاول.

وبقياس نشأة هذا الانسان على ماهو مشاهد فى نشأة الطفل وما هو معروف عن لغات الشعوب الهمجية التى لاتزال فى حدود الطفولة يمكن القول بأن نطقه كان أولا بالاصوات الدالة على الانفعالات النفسية أو على محاكاة الطبيعة ثم بالالفاظ المسمي بها بعض المحسوسات حوله وتلا ذلك النطق بالمصادر ثم الافعال وأسبقها المضارع وهكذا انتقل التدرج الى أسماء الاشارة والضمائر والموصولات ثم المشتقات وبعد ذلك كله جاءت الحروف.

تلك هى نشأة اللغة أما كيف تعددت إلى لغات فمنشأ ذلك حتما هجرة طوائف الانسان وابتعاد بعضها عن بعض حيث رأت كل طائفة فى بيئتها مالم يره غيرها فاضطرت إلى وضع كلمات لم يضطر اليها سواها . ثم ان عدم اتفاق الخواطر على فرض تماثل البيئة فى بعض الاحيان جعل الخلاف واقعا لامحالة فى التعبير ولو إلى درجة غير بعيدة . فالى البيئة والخاطر معا يرجع تعدد اللغات ومن هنا كانت تتقارب اللغتان وتتباعدان قربا وبعدا كما كانتا قد تختلفان عن قرب أو تتشابهان على بعد ويغلب أن يكون ذلك قد حدث قبل نوح عليه السلام ولكن حادثة الطوفان عفت على ماسبقها وجعلت الناس لايعرفون تعدد اللغات إلا بعدها فنسبوا أصولها إلى أبنائه الثلاثة حام ويافث وسام كما فعلوا فى ارجاع أنساب الانسان فارضين أن لغة نوح ومن كان معه فى السفينة كانت واحدة ولكن بنيه لما انتشروا فى الارض بعد ذلك اختلفت لغتهم لما تقدم فى أسباب نشأة اللغات ونسل من كل منهم شعوب وقبائل ذات لغات متعددة ولكنها ترجع فى اصلها إلى أبيهم وإذن فأصول اللغات ثلاثة

١ — اللغة الحامية نسبة إلى حام ومنها معظم لغات أفريقية كالحبشية والمصرية القديمة

٢ - اليافثية نسبة إلى يافث وتعرف بالآرية نسبة إلى آرين يافث وهى لغة أوربة وكثير من شعوب آسية فى غير الغرب

٣ — السامية نسبة إلى سام وهى لغة غرب آسيا مهد النبوة والرسالة وبها نزلت الكتب المقدسة فأثرت بهذا وبتوسط موطنها فى كثير من فروع اللغتين السابقتين حتى إن بعضها قد عد منها كما سيأتى فى الكنعانية بعد . ولما كانت العربية « وهى لغتنا وموضوع بحثنا » أحد فروعها ناسب أن نذكر كلمة عنها مع أصل العربية من باب التوطئة والتمهيد

ثانيا — اللغات السامية وأصل العربية

لقد وجد تشابه كبير فى لغات الامم التى سكنت فى القديم غرب آسية من العراق والشام وجزيرة العرب فانها فوق اشتمالها على حروف تكاد تكون خاصة بها كالحاء والصاد والطاء والعين وغيرها قد جاءت كثيرة الاشتراك أو شديدة التشابه فى الالفاظ والمعانى وفى كثير من الخواص كمميزات التأنيث وكيفية اتصال الضمائر بجميع أنواع الكلمات . ولما كانت تلك الامم فى غالبيتها من أبناء سام وكانت هذه اللغات قاصرة عليهم دون غيرهم الا من خالطوهم كالكنعانيين أبناء كنعان بن حام سكان لبنان ثم لم تعرف خارج تلك الجهات الا منقولة معهم فقد سميت هذه اللغات بالسامية وقسمت فى أصولها إلى أرومتين عظيمتين .

الأولى : وهى أقلها شأنا الكنعانية وكان أولى بها أن تكون من الحامية كما تقدم لولا أنها جاءت شديدة التشابه بالفروع السامية لطول ما أقام أهلها مع الساميين وأشهر فروعها (١) الفينيقية لغة أهل لبنان قديما وقد بادت (٢) العبرية وقد دخلها كثير من فروع الارمية الآتية فصار يقال العبرية القديمة والعبرية الحديثة وقد بادت القديمة وبقيت الحديثة

الثانية وهى أعظمها الارمية الاولى نسبة الى إرم بن سام وأشهر فروعها (١) الآشورية لغة أهل نينوى وقد بادت (٢) البابلية لغة أهل بابل وقد تغيرت إلى الكلدانية ومن الكلدانية تفرعت السريانية والارمية الثانية ومكثتا إلى مجىء الاسلام ثم بادت الارمية قطعا والسريانية إلا على ألسنة القليل (٣) العربية القديمة وهى لغة العرب البائدة ذات الاتصال القريب بأرم وقد عاصرت قدامى أخواتها وقبيل أن يبيد أهلها انتقلت إلى اليمن وعرفت بها على

أيام يعرب بن قحطان ولكنها تأثرت باليمنية القديمة وتأثرت اليمنية بها فنشأت العربية الوسطى أو القحطانية التى تمثلت بعد فى السبئية والحميرية وبقيت حتى غلبت عليها العربية الحديثة وهى العدنانية أو المضرية وان كانت تأثرت بالسبئية والحميرية جنوبا وبالعبرية والسريانية شمالا ثم استمرت فى طريق النضوج والتهذيب إلى أن قاربت فيه الذروة قبيل الاسلام فنزل بها القرآن الكريم فأتمه عليها ونشرها على لسان من آمن به فى مشارق الارض ومغاربها.

من ذلك يتبين أن اللغة العربية أصل من أصول الارمية القديمة التى هى منشأ اللغات السامية جميعا ماعدا الكنعانية أو بغير استثناء لما سبق من أن الكنعانية ليست أصلا فيها بل كثيرة الشبه بها ثم مع فضل اللغات السامية على غيرها كما يقول علماء اللغات بكثرة الكلمات وتنوع الاساليب واطراد القياس ووضوح مخارج الحروف وعذوبة المنطق قد فاقت العربية أخواتها جميعا فى ذلك وفى غيره حتى رأى كثير من العلماء قديمين وحديثين شرقيين وغربيين أنها أصل اللغات السامية جميعا بما عقدوه من موازنات بينها وبين السريانية والعبرية وهما أغنى الساميات بعدها إذ اتضح من هذه الموازنات أن العربية أصل لهما بدليل أن الكلمات المشتملة على حرف الضاد وهو خاص بالعربية دونهما تنقل اليهما بجعل الضاد صادا فى العبرية وعينا فى السريانية باطراد ولو كانت العربية ناقلة عنهما لما كان ثمت داع لجعل هذين الحرفين ضادا لوجودهما فيها وبدليل فقدان كثير من أصول الكلم فيهما مع وجوده فى العربية هذا الى ماهو ثابت للعربية من مميزات أوجدها التقدم الفطرى فى بقائها بجزيرتها قرونا طويلة بعيدة عن الاختلاط وآمنة شر المغيرين حتى اكتسبت بذلك مناعة جعلتها أقوى على مدافعة الغير وأبقى على مطاولة الزمن.

ثالثا ـــ طرق نمو العربية وخصائصها

نشأت اللغة العربية على النظام الذى أسلفناه فى نشأة اللغات فتكونت النواة الاولى من ألفاظها بعاملى المحاكاة والارتجال ولا بأس من ذكر شىء عنهما الآن حيث يساق الكلام خالصا لطرق نموها وخصائصها

ا ـــ المحاكاة

فألفاظ المحاكاة أنواع : منها ماحوكى به أصوات الحيوان كعواء الكلب ومواء الهر وخوار العجل مما أصله الحرف الاول محركا بحركة . وكرغاء الابل وأصله الحرفان الاولان وكنبيب التيس وأصله الباء مكررة وكصريف الجندب وأصله الحرفان الاولان مكررين

ومنها ماحوكى به أصوات الانسان الفطرية كالشهيق والزفير والشخير والزحير مما أصله الحرف الثانى وكالتأوه وأصله الهمزة والهاء والتأفف وأصله الفاء مكرره والقهقهة وأصلها القاف والهاء مكررتين

ومنها ماحاكى أصوات الطبيعة وتفاعلها كخرير الماء وحفيف الاشجار وهبوب الريح وكالدق والصك والهد والقط والمص والرش ونحو ذلك مما بين حروفه وصوته تشابه

وقد تلاحظ المحاكاة فى وضع أسماء لبعض الذوات من صوتها كالانف والفم وأصلهما الفاء وكالحلق والحلقوم والحنجرة وأصلها الحاء

ومن هذه الاسماء الصوتية نشأت أفعال إما بالمد كخار العجل أو بالتكرير كخر الماء ونحوها مما جعل التولد والازدياد عن طريق الصوت فعالا مستمرا .

ب — الارتجال

والألفاظ المرتجلة هى أكثر ألفاظ اللغة فقد خص الله الانسان بالنطق والفكر فاقتدر بهما على وضع ألفاظ كان ينطق بها كلما دعاه داعى التفهم أو التفهيم ومن العسف أن ننكر عليه الارتجال كما فعل بعض المكابرين ونحن نرى الاطفال ولما يبلغ فيهم النطق والفكر مبلغهما فى الكبار كثيرا مايرتجلون كلمات مركبة من بعض حروف يدلون بها على مرادهم ويستعينون فى تفهيمها ببعض الاشارات وقد لايستعينون ومع ذلك تفهم عنهم بالتكرير فمن الطبيعى والمعقول أن يكون الكبار أقدر منهم على الارتجال ولاسيما إذا ساعدهم عليه استخدام عوامل النمو على ماسيأتى بيانه :

عوامل النمو

هى الابدال والقلب والنحت والاشتقاق والتجوز

الابدال

هو جعل حرف مكان آخر يقرب منه فى اللفظ كأن يكونا من مخرج واحد أو مخرجين متقاربين وقد تناول كل الحروف تقريبا ولكن أشهر أنواعه ما يأتى : —

١ — تبادل الهمزة والهاء مثل أيهات فى هيهات وهيا فى أيا من قول الراجز : —

فانصرفت وهى حصان مغضبه ورفعت من صوتها هيا أبه

كل فتاة بأبيها معجبه

٢ — تبادل الهمزة والياء مثل ألملم فى يلملم ويلمعى فى ألمعى

٣ — تبادل الهمزة والواو عند الحجازيين كوكد فى أكد وإشاح فى وشاح

٤ — تبادل الهمزة والعين عند قيس مثل

أعن توسمت من خرقاء منزلة ماء الصبابة من عينيك مسجوم

والأصل أأن ومثل

أريني جوادا مات هزلا لأنني أرى ماترين أو بخيلا مخلدا

والاصل لعلني وابدال الهمزة عينا هو عنعنة قيس

٥ — تبادل التاء والطاء كسلتان فى سلطان من قول الشاعر

فتى زاده السلتان فى المدح رغبة إذا غير السلتان كل خليل

وطرياق فى ترياق

٦ — تبادل التاء والدال مثل سبنتى فى سبندى ومد فى مت بمعنى اتصل

٧ — تبادل الحاء والعين عند هذيل مثل ضبع فى ضبح وبحثر فى بعثر ويسمى الفحفحة

٨ — تبادل الحاء والهاء مثل تفيحق فى تفيهق وكده فى كدح

٩ — تبادل الضاد والظاء كقول أعرابى لسيدنا عمر «أيظحى بضبى» يريد أيضحى بظبى

١٠ — تبادل النون واللام مثل أصيلان فى أصيلال وهتل فى هتن

١١ — تبادل النون والميم مثل غين فى غيم وامتقع فى انتقع

١٢ — تبادل الميم والباء عند مازن كبكة فى مكة وامنى فى ابنى

١٣ — ابدال التاء كافا مثل « يابن الزبير طالما عصيكا » يريد عصيت

١٤ — ابدال الضاد لاما مثل

لما رأى أن لادعة ولا شبع مال إلى أرطاة حقف فالطجع

يريدفاضطجع

١٥ — ابدال القاف كافا عند حمير مثل يارفيك فى يارفيق

١٦ — ابدال لام التعريف عندهم ميما مثل امسفر فى السفر ويسمى الطمطمانية

١٧ ـ ابدال السين تاء عندهم مثل النات فى الناس ويسمى الوتم

١٨ ـ ابدال الكاف شينا عندهم مثل منش فى منك ويسمى الشنشنه

١٩ ـ ابدال العين الساكنة قبل الطاء نونا عند أسد مثل أنط فى أعط ويسمى الاستنطاء

٢٠ ـ ابدال الياء المشددة جيما فى الوقف عند قضاعة ويسمى العجعجة مثل

خالى عويف وأبو علج المطعمان اللحم بالعشج

يريد «على والعشى» وقد يحدث هذا الابدال من غير تشديد وفى غير الوقف

٢١ ـ ابدال كاف المؤنث شينا فى الوقف عند تميم وتسمى الكشكشة مثل قرى فى بيتش أى فى بيتك وقد يكون هذا الابدال فى غير الوقف مثل بش تقتدى النساء أى بك كما قد تضاف الشين الى الكاف من غير إبدال مثل قرى فى بيتكش

٢٢ ـ ابدال كاف المذكر سينا فى الوقف عند بكر وتسمى الكسكسة مثل احمد ربس أى ربك وقد يكون هذا الابدال فى غير الوقف مثل ربس احمد أى ربك كما قد تضاف السين الى الكاف من غير ابدال مثل احمد ربكس

وباب الابدال واسع المدى كثير المثل ولذا كان من أكبر العوامل فى اختلاف اللهجات

القلب

هو تقديم حرف أو تأخيره فى الكلمة بحيث تنشأ كلمة أخرى متحدة المعنى مع الاولى أو مختلفته يسيرا كبعض وبضع وجذب وجبذ ويغلب أن يكون سببه خطأ أتى من سبق اللسان أو محاكاة لمسموع مع سوء الاستماع ثم تكرر استعماله فثبت

النحت

صوغ كلمة من بعض حروف كلمتين أو أكثر ايجازا فى النطق كبسمل وحمدل وسبحل وحوقل وطلبق ودمعز وعبشمى وعبقسى وبعضهم يغالى فيقول إنه قد يأتي فى الكلمة فتصفو على حرف واحد وأن من ذلك حروف المضارعة فالهمزة من أنا والنون من نحن والتاء من أنت والياء من هى .

الاشتقاق

أخذ كلمة من أخرى مع تقارب فى المعنى واختلاف فى اللفظ وهو باب واسع النطاق كثير التقاسيم وقد تكفل به علم الصرف

التجوز

استعمال اللفظ أو التركيب فى غير ما وضع له لعلاقة هى المشابهة أو غيرها وبقرينة مانعة أو غير مانعة وهو باب حافل وضع من أجله علم البيان

الترادف

وهذا عامل سادس هو الترادف ويكون بأن يوضع للمعنى الواحد أكثر من لفظ وهو شائع فى العربية وقد تصل كثرته الى مئات الالفاظ ومنشؤه اختلاف الخواطر فى وضع الاسماء أو فى التعبير عن المعاني على أن بعض علماء اللغة يقول انه لابد أن كانت هناك فروق دقيقة بين المترادفات تنوسيت على تطاول الزمن ولكن فى هذا القول بعض مغالاة ولعل القصد فى التعليل أن يقال إن الترادف لم يظهر الا حين اشتد الاختلاط وعرف كل قبيل ما كان يستعمله الآخرون فتبادل واياهم هذا الاستعمال

الخصائص

تلك هى طرق نمو اللغة وزيادتها أما خصائصها فمع صعوبة إثبات شىء من الخصائص للغة ما على اطلاق اللفظ يمكن أن نسند الى العربية من الميزات ما اذا لم يكن

خاصة من خواصها لا يعدم أن يكون فيها أفضل منه فى غيرها وأهمه

١ — الاعراب ولا يكاد يشارك العربية فيه من اللغات الا القليل كالحبشية على ضعف وقلة تصريف بينا هو فى العربية كثير التنويع والتفريع وبه يكون التمييز بين المعانى والوقوف على مرامى المتكلمين فوجوده فى العربية دليل على قدم أهلها فى البيان وألمعيتهم فى تفهم الاغراض فان اختلاف حركة فيه قد يقلب المعنى ويغير من نوع الكلمة

روي أن رجلا من الخوارج قال وخليفتهم إذ ذاك شبيب

فمنا يزيد والبطين وقعنب ومنا أميرُ المؤمنين شبيب

بضم الراء فامر عبد الملك بطلبه ولما وقف بين يديه قال له أنت القائل وروي البيت كما ذكر فقال لم أقل هكذا انما قلت « ومنا أميرَ المؤمنين شبيب » وفتح الراء فضحك عبد الملك وخلى سبيله لتخلصه بفطنته

وروى أيضا أن الوليد بن عبد الملك وكان لحانة قال لأحد أشراف قريش من ختنك بفتح النون وهو يريد الضم فقال فلان اليهودى فقال له ما تقول ويحك قال لعلك تسأل عن ختنى يا أمير المؤمنين هو فلان

٢ — عدم الابتداء بالساكن وعدم جواز التقاء الساكنين الا بضوابط تجعله على قلته غير ثقيل وهذا خاص بالعربية وقد يجتمع فى غيرها من اللغات الاخرى أكثر من ساكنين

٣ — الدقة فى استعمال الالفاظ وتتضح فى العربية فى أمرين أحدهما تفصيل الالفاظ بقدر تفصيل المعانى حتى ليكاد يوجد لكل جزئية من المعنى الواحد كلمة خاصة بها وهذا كثير فصلته مخصصات اللغة فى أجزاء الانسان والحيوان والطير والنبات والجماد والزمان وغيرها مما هو مواطن التسمية ثم فى تفرع الافعال للشيء الواحد فالقتل مثلا للمعني الكلى وتحته من الالفاظ ما يبين

كافة أنواعه . والثانى عدم العدول عن اللفظ المناسب للمعنى ماوجدت تلك المناسبة فان ملاحظة المناسبة ان هى الا من تلك الدقة وهذا مستفيض فى اللغة قد تناول الالفاظ الموضوعة بالمحاكاة كلها وأتى على كثير من المرتجلة عن طرق النمو السابقة وما نظن لكثير من اللغات مثل هذا

٤ — الدقة فى استعمال التراكيب ومن أجل هذه الدقة الكلامية وعليها قامت علوم البلاغة الثلاثة بفصولها الضافية وأبحاثها الوافية التى يبعد أن تضارع بمثلها فى غير العربية

٥ - الايجاز وليست هناك أمة تبارى العرب فيه فقد بلغ من إيجازها أن كان الكلام على غنائه فى المعنى يقع فى الجملة والجملتين. وما الامثال والحكم وجوامع الكلم الا آيات شاهدة على هذا ثم لعل فى اكثار العرب من استعمال الايماء والاشارة والتعريض والكناية واللحن الصارف الى غير المتبادر أحيانا ما يرينا مبلغ مقدرتها على الايجاز ومهارتها فيه

٦ — خضوع عوامل النمو السابقة فى جملتها لكثير من الاقيسة والضوابط مما لا يوجد بعضه فى غيرها ألبته أو يوجد بقدر ضيق يجعل الشاذ أكثر من المقيس.

٧ — هذا وبالعربية خاصة قيل إنها لا تعتبر من آيات الكمال والمدح بل من بقايا النقص والعيب وهى الاشتراك ويكون بأن يطلق اللفظ الواحد على أكثر من معنى وبخاصة اذا كان فى بعض معانيه التضاد مما يؤدى الى التعمية والابهام إذ هذا يتنافى مع الغرض المفروض فى اللغة من أنها وسيلة الى الايضاح والبيان ويغلب أن تكون الألفاظ المشتركة من بقايا اللغة التى لم يأت عليها الزمن بعوامل الاختصاص ولكن مما يهون الامر فيها بالعربية وجود كثير من الكلمات المختصة ازاء اللفظ المشترك فان فى ذلك غناء للقائلين وفرارا مما فيه تلبيس على السامعين هذا الى ما قد يفيض به المقام اذا استعمل اللفظ المشترك من قرائن تتطلب المعنى المراد دون لبس ولا ابهام على ان الابهام قد يقصد فى بعض الاحيان.

رابعا — اختلاف لهجاتها وعوامل تهذيبها

عرف مما سبق بيانه فى اللغات السامية وأصل العربية أن العربية اجتازت ثلاثة أطوار طور أول هو نشوءها على لسان العرب البائدة الذين هم أقرب الشعوب العربية الى سام لانهم الى ابنه إرم ينسبون وطور ثان هو ما كان من اختلاط هذا الشعب الاول باليمنيين القدماء اختلاطا جعل لغة كل فريق تؤثر فى لغة الفريق الآخر ولكن يظهر أن الغلبة كانت للغة العرب البائدة على اليمنية القديمة فصارت أوضح منها فى العربية الثانية لما هو متفق عليه من أن اليمنيين تعربوا على عهد يعرب بن قحطان ومن ثم عرفوا بالعرب المتعربة ثم كان ما كان من انقراض العرب البائدة وبقاء العربية ممثلة على لسان القحطانيين وحدهم أما الطور الثالث فهو ما كان من نشوء شعب عربي جديد حيث نزل ابراهيم وادى مكة على مقربة من جرهم الثانية وهى قحطانية فرفع قواعد البيت ثم عاد تاركا هناك ابنه اسماعيل الذي أصهر فى تلك القبيلة فكان له بنون نشئوا يتكلمون لغة جديدة تأثروا فيها بلغة أبيهم وبلغة هؤلاء القحطانيين حتى اذا ما انحدر التناسل الى عدنان تم ظهور شعب ثان هو الشعب العدناني الذي عرف باسم العرب المستعربة وبذلك كانت هناك لغتان قحطانية فى الجنوب وعدنانية فى الشمال ولكن مهما قلنا فى التفرقة بين اللغتين فلن تبلغ التفرقة جعل كل واحدة منهما تامة الاستقلال عن الاخرى لأن تكوين الاخيرة يأبي هذا الاستقلال كما يأبى إلا أن تكون الاولى أغلب عليها عملا بتغلب الكثير على القليل وكذلك مهما قلنا فى التقارب بينهما فلن يبلغ التقارب درجة الاتحاد وبخاصة اذا علمنا أن معظم الشعوب القحطانية حين نشوء العدنانية كانوا بعيدين فى الجنوب عن الاختلاط بالعدنانية فى الشمال وعلى هذا الاساس سيكون قولنا فى اختلاف

لهجات العربية وعوامل تهذيبها وكان ظاهر العنونة يقتضى أن نقدم القول فى اختلاف اللهجات عليه فى عوامل التهذيب لولا أن ما سنسوقه بعد من اختلاف فى اللهجات هو بقايا ما مكث منها على الرغم من تلك العوامل حتى جاء الاسلام وفى هذا ما يدعوا الى عكس الترتيب

عوامل التهذيب

يقصد بالتهذيب الذى حدث فى اللغة الى أمرين أحدهما السير بها فى طريق التحسين والترقى بمجهود كل قبيل على حدة وبقطع النظر عن أن يتقرب فى ذلك الى لهجات غيره من القبائل الاخرى والثانى العمل على تقريب تلك اللهجات بعضها من بعض تقريبا ينتهى كما انتهى بما هو أشبه بالتوحيد ولكل من هذين الامرين عوامل هى المجتمعات الخاصة للاول والعامة للثانى على أنه من الطبيعى أن تكون المجتمعات العامة مع اختصاصها بالتهذيب من ناحية التوحيد عاملة عليه أيضا من الناحية الاخرى فما هى اذن تلك المجتمعات

١ ـ المجتمعات الخاصة

كان للعرب مجتمعات خاصة كثيرة دفعتهم اليها أحوالهم وشهدت بها الفاظهم وكلها كان يستدعى منهم أن يقولوا ويتكلموا محاولين فى ذلك تجويد قولهم وتحسين كلامهم ما أمدتهم القريحة وطاوعهم البيان وفى هذا من العود على اللغة بالتقدم والترقى ما نريد أن نقول

فمن المجتمعات ما كان للمذاكرة والمشاورة فى تدارك حرب أو اغارة وكان يقع غالبا فى قبة ينصبها من تكفل بأمرهم فيجتمع فيها أهل الحل والعقد منهم ثم تدور أقداح القول ويجرى النقاش فيه تأييدا أو نقضا حتى يصلوا الى رأى يستقرون عليه ويعزمون العمل به ومن هنا نشأ ما يذكرونه عن الرأى المبيت والاقبال عليه والرأى النطير والانصراف عنه

ومنها ما كان للحكومة والفصل فى الدعاوى والمنازعات فيستعد كل فريق للادلاء برأيه والدفاع عن وجهة نظره أمام حكم يرضونه ويذعنون لحكمه وقد كان هؤلاء الحكام يختارون ممن عرفوا بحصافة الرأى وحضور البديهة وقوة البيان حتى يكونوا قديرين على مناقشة الخصوم واستجلاء الحقيقة من تلك المعمعة الكلامية التى يريد أن يخرج منها كل طرف فى الخصومة فائزا على خصمه منصورا

ومنها ما كان للاتعاظ والاعتبار فما خلا قبيل من ذى بصيرة نافذة ونفس طاهرة يجتمعون اليه بعض أيامهم لاستماع ما فيه ترغيب أو ترهيب كما توحي عقائدهم وتنطق فطرهم ومن هذا النوع ما كان من اجتماع قريش حول كعب ابن لؤى كل يوم عروبة يعظهم ويذكرهم ويقال إنه لذلك سمى يوم الجمعة وإنه لذلك أيضا واسبقه يومي السبت لليهود والأحد للنصارى اختاره الاسلام بعد لجعل صلاة الجمعة فيه

ومنها ما كان للتحالف والتعاقد على الدخول فى أمر أو الكف عن أمر مما يتطلب من ذوي المكانة والزعامة قبل الدعوة اليه قولا وبيانا ومن السامعين مدافعة وحوارا حتى تستقر الاشياء فى أنصبتها وتطمئن النفوس الى الايمان بها. ومن ذلك حلف المطيبين حين أراد بنو عبد مناف أن يأخذوا من بنى عمهم عبد الدار ما أعطاهم إياه أبوهما قصى بن كلاب من أمور البيت فأبوا عليهم وكاد يقع الشر لولا هذا الحلف الذى قسم الامور بينهما وانما سمى بذلك لانهم غمسوا أيديهم حين عقدوه فى طيب مسحوا به الكعبة توكيدا له وتوثيقا. وكثيرا ما كان يقع التحالف اذا تسافه أفراد القبيلة تسافها يقتحم الحد ويتهجم على العرف فيهب أشرافها يتعاقدون على التآمر بالمعروف والتناهى عن المنكر كما

فعلت قريش فى حلف الفضول على يدى العباس بن عبد المطلب وسفيان بن حرب ورسول الله يومئذ ابن خمس عشرة سنة وهو الحلف الذى قال فيه صلى الله عليه وسلم « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ولو دعى اليه فى الاسلام لاجبت »

ومنها ما كان اذا خلوا من تلك المشاغل لمحض الانس وترويح النفس بذكر ما سلف من الحروب والوقائع وقص ما مضى من السير والاخبار وتناشد ما حلا من الرجز والقريض الى غير ذلك مما تنشرح له الصدور وتنتعش به الافئدة وكان هذا النوع من المجتمعات لا يقع غالبا الا ليلا ولذا سمى حديثه بالمسامرة والسمر وهما فى اللغة حديث الليل وكانت عادتهم فيه أن يتحلقوا وفى وسطهم من ينتهى اليه أمرهم وأحيانا كان يتحمس المتكلم اذا أراد ذكر قصص غريب فينهض لالقائه واقفا كما يفعل الخطيب

هذه هى المجتمعات الخاصة وقد قطعت فى تهذيب اللغة بالمعنى الاول شوطا بعيدا ولها أسست الاندية ومن أقدمها دار الندوة التى أسسها قصى بن كلاب فكانت تجتمع اليه فيها قريش للامور السالفة ليلا ونهارا ولهذا سمى مجمعا على أن الاجتماع بها لم يقتصر على تلك الامور بل تعداها الى غيرها كالاملاك والاعذار فكان يقع من الكلام ما يلائم الموضوع ومن الخطب ما يناسب المقام

ب — المجتمعات العامة

أما المجتمعات العامة فنعنى بها ما أدى الاجتماع فيها الى الاختلاط بين قبيلتين أو أكثر أيا كان الدافع الى هذا الاختلاط ونقصد منها أكثر ما نقصد العمل على التقارب والتوحيد بين لغات القبائل وبخاصة بين يمن ومضر وإن كانت تؤدى مع هذا الى ما سبق ذكره من الحسن والارتقاء وقبل أن نتكلم على عواملها وهما قريش والاسواق لا بد لنا من القول بأن العامل الاساسى قبل هذين كان اختلاط القحطانية بالعدنانية حيث غادرت كثرتها اليمن منذ القديم

لسيل العرم أو للعيش أو لغيرها من أى شىء تشاء فملأت من الجزيرة العربية وسطها وشمالها ومابعد من أطرافها وبذلك كان تخالط وكان امتزاج ذهبت به الفوارق اللغوية الجسيمة بحكم الطبيعة وعلى توالى الايام ثم كان ماسنذكره عن قريش والاسواق فضعفت كل الضعف وزال مابقى من فارق أو كاد

قريش

« إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا » رفع ابراهيم قواعده وابنه اسماعيل فأقاما أركانه وأتما بنيانه وتقبل الله دعاءهما الذى حكاه سبحانه بقوله عنهما « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم » فكان بيتا محجوجا يقصده العرب من كل مكان قصى ويأتون اليه من كل فج عميق يطوفون به ويقضون مناسكهم فيه ولقد كانت أفئدتهم تهوي اليه استجابة لدعاء نبيه وخليله حيث يقول « ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » وما زال هـذا البيت محل وفادة لجميع العرب من لدن اسماعيل حتى جاءت قريش فكانوا جيرته الأدنين يقيمون حوله ويقومون بسدانته توفيراً لراحة زائريه وعملا على ارضاء قاصديه يستمعون جميع لهجات العرب اذا دعوا ولبوا أو تضرعوا وتوسلوا وإذا أرادوا أمراً أو قصدوا شيئا فلا يزالون موسم الحج على طوله وإذا لم يك حج كان اعتمار ينقلون إلى لغتهم مايستحسنون من ألفاظ وعبارات وينقل الوافدون اليهم عنهم إذا قفلوا أكثر مما ينقلون هم فينشرونه فى أرجاء الجزيرة ونواحيها وهـكذا دواليك بقيت قريش أداة أخذ وإعطاء تعمل بمجهود جبار على التوحيد والتهذيب حتى تهذبت عبارتها وترقى أسلوبها واتسعت

لغتها وصارت أوفى بتأدية المراد من غيرها وأصبحت لهجة مكة وهى حاضرة العرب وبلدة قريش أوضح اللهجات بيانا وأعذبها أسلوبا وأخفها منطقا وأوسعها فهما شأن اللهجات فى حواضر المدن وقواعد الممالك تجد لها من الحلاوة والطلاوة مالا تجد لغيرها من سائر مدنها وجميع قراها ثم لم تك قريش محل وفادة فحسب بل كانت بحكم عملها التجارى لا تزال تقطع بلاد العرب برحلة الشتاء والصيف الى اليمن جنوبا والشام شمالا فتغزو بهاتين الرحلتين وبغيرهما الى غير هذين الاقليمين ماتصادفه من خلاف غزوا يكسر من حدته ويفل من غربه فاذا هو مستكين ضعيف يتوارى ثم لا يلبث أن يزول

الأسواق

جمع سوق وهى مجتمع الناس أصلا للبيع والشراء وكانت للعرب أسواق عامة يبدءون التنقل اليها من أوائل سنتهم بالشمال ثم لا يزالون يسيرون اليها شرقا فجنوبا حتى ينتهوا من سوق صنعاء بانتهاء رمضان فتعمد جميع القبائل الى الاستعداد خلال شوال للرحلة الى سوق عكاظ فيعمرونها من أول القعدة إلى عشرين منه ثم يغادرونها إلى مجنة قرب مكة بقية القعدة ومن مجنة يذهبون أول الحجة إلى ذى المجاز بجانب عرفة لا بمنى كما قد يقال ومنها يكون المنصرف إلى الموقف الاعظم فى عرفات وبالصدور منه ينفرط عقد الناس

ولما كانت هذه الاسواق الثلاث قريبة المكان من مكة والزمن من موسم الحج كانت أعظم الاسواق جمعا لقبائل العرب المتباعدة مقاما ونسبا وكل مجتمع كهذا لا يخلو والناس يزحم بعضهم بعضا من بادرة غضب أو سابقة قول وما أسرع تجمع الناس والتفافهم حول المختلفين فيرى كل من المتنازعين حوله من الخلطاء والبعداء مايطلق من لسانه ويثير من انفعاله فيقول ويفتخر والجموع مثار القول والفخر ثم ينصرفان وفى نفس كليهما موطن لم يبلغه فيعود هو

أو أحد عشيرته إلى السوق من عامة القابل وقد أعد قولا يرد به على منازعه ويستكمل به نقصه وهكذا بدأ الاتجار بالكلام فى الاسواق وما زال آخذا فى الازدياد حتى كان خير بضاعة أو هو البضاعة النافقة فى هذه الاسواق وأخصها عكاظ فقد اعتادت القبائل أن تعد للقول بها عدته وللفخار آيته فيستمع المحكمون ويقدمون أو يؤخرون وفى هـذا من الباعث على الروية فى القول والتخير للنظم مارفع من صناعة الكلام وجعل التروىء من عادة الكثيرين وقد كانوا من قبل ينطقون دون سبق روية أو تفكير وشتان ما بين البديهة وإن وافقت الصواب وسداد البصيرة وهدى التفكير

وإذ كان الشعراء والخطباء وكل ذى كلام يريد له سعة فهم وكثرة ذيوع ولا بد أن يريدون لغة قريش أو فى اللغات بهـذا فقد انثوا اليها جميعا يستوحون فصاحتها وبيانها ويستمدون قوتها وسلطانها حتى غطت على جميع اللهجات فأصبحت العلم الذى بنوره يهتدى والامام الذى بقوله يقتدى عرف العرب لها ذلك واعتقدوه فى المحاكاة والتقليد فأخذوا يتقربون بلغاتهم اليها وكانت الاسواق من أقوى العوامل على هـذا التقريب حتى قارب توحيد اللهجات التام واستعد العرب لفهم القرآن الكريم الذى نزل بلغة قريش ولمعرفة مواطن الاعجاز فيه فلم يبق بعد نزوله إلا القليل من اللهجات

اختلاف اللهجات

ليس أمامنا من قول فى اختلاف اللهجات بعد الذى قدمناه من أن عوامل التهذيب قد تغلغلت فى اللغة فنقتها وهذبتها ووحدتها فى مجموعها وقربتها وجعلت لغة قريش معروفة للجميع يمتلكون زمامها ويفضلون القول بها على غيرها سوى أن نذكر بعض هذه اللهجات لتضم إلى ماقدمناه منها فى الابدال

ا — لليمن

١ ـ تلتلة بهراء . وهى كسر حروف المضارعة إلا همزة إخال فانها عامة الكسر لدى الجميع

٢ ، ٣ ـ وهم كلب ووكمها . والاول كسر هاء الغائب دون أن يسبقها كسر ولا ياء ساكنة . والثانى كسر كاف المخاطب بعد الكسرة والياء الساكنة وقبل ميم الجماعة

٤ ، ٥ ـ استعمال ذو وفروعها بدل الذى وفروعها عند طيء . وفتح عين الناقص المكسورة عندهم أيضا

٦ ـ حذف نون اللذين واللتين رفعا عند بلحارث من مذحج

٧ ـ اعراب المثنى بالالف عند بطن من كلب يدعى ربيعة

٨ ـ حذف بعض الحروف دون علة عند أزد الشحر وعمان مثل مشالله فى ما شاالله وتسمى اللخلخانية

ب ـ لمضر

١ ، ٢ ـ ضم هاء الغائب بعد كسر أو ياء ساكنة عند الحجازيين . والزامهم ما النافية عمل ليس

٣ ، ٤ ـ عدم اعمال ماعمل ليس مطلقا عند تميم . وقصر أولاء الاشارية ومد ألى الموصولة عندهم أيضا

٥ ـ اختلاس هاء الغائب أو تسكينها بعد حركة عند بنى كلاب وبنى عقيل

٦ ـ اجراء الذين مجرى جمع المذكر رفعا عند بنى عقيل وهذيل

٧ ـ قلب ألف المقصور ياء إذا أضيف إلى ياء المتكلم مع ادغامها فيها عند هذيل

ج – لهجات غير مقيدة بيمن أو مضر

١ـ اعراب الاسماء الخمسة بالحركات مقدرة على الالف أو ظاهرة على عينها

٢ـ اعراب المنقوص نصبا كاعرابه رفعا وجرا

٣ـ الحاق الضمائر بالفعل على أنها علامات تثنية وجمع

٤ـ زيادة حروف لين باشباع الحركات فى المد

٥ـ ترقيق المفخم بطريق الامالة من الفتح الى ما بين الفتح والكسر

٦ـ تسكين بعض المتحرك بدون علة كالعين فى معكم

٧ـ الاختلاف فى نوع حركة أحد الساكنين حين التخلص من التقائهما

٨ – « « التذكير والتأنيث حيث لا يجب أحدهما

٩ – « « الهمز والتسهيل

١٠ – « « الفك والادغام

١١ – « « صيغ جموع التكسير للكلمة الواحدة

هذا ومن اختلاف اللهجات أيضا اختلاف القبائل فى معاني الالفاظ اختلافا نشأ عنه الترادف والاشتراك والتضاد وقد تقدم وجه الرأى فيه ؟

obeikandi.com